

قطاع الثقافة

مكتبة الشعراوى الإسلامية

من فيض الرحمن

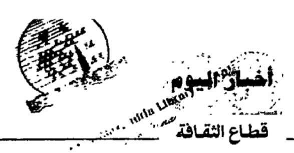






فضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى



قطاع الثقافة

مكتبة الشيخ الشعراوى الإسلامية

من فيض الرحمن

الجزء الرابع

فضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى



تصميم الغلاف والإخراج

أسامة أحمد نجيب

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن



الترقي في الإيمان

من الواجب علينا أن نجعل عملنا يتسع لثلاثة أهداف :

*** أن نعول أنفسنا بالتريض .**

*** وأن نعول من نحن مسئولون عنهم بالتربية والرعاية .**

*** وأن نعول الضعفاء والعاجزين بالمساعدة والعناية ، وبهذا يكون رقى الإيمان .**

طلب الله سبحانه وتعالى من عباده أن يتحركوا فى الحياة حركة تنتج لهم ما يسع حاجاتهم أولاً . . وتتسع أيضاً لمن تكون مسئوليته ملقاة على عاتق العباد . . كالأبناء . . والضعفاء .

فالحق سبحانه يطلب من عبده المؤمن أن يعمل عملاً يتسع للضعيف الذى لا يقدر على الحركة ، وقلنا : إن الفارق بين المؤمن بالله والكافر به . . هو هذا المعنى .

لأن الكافر يستوى مع المؤمن [(١)] فى أنه يتحرك فى الحياة لحاجة نفسه ولمن يعولهم ؛ لكن المؤمن يتلقى تكليفاً بأن يتحرك تحركاً آخر .

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾ [المؤمنون]

إن على المؤمن أن تسع حركته حاجة الضعيف العاجز من خلق الله .

وليس هذا الضعيف العاجز عالة على المجتمع كما يفهم الناس .

إن الله سبحانه خلق هذا الضعيف العاجز ليرى الناس المثل ، فإن الضعف والعجز عندما يتجسد فهو يصحح عقائد الناس ، ويلفت كلاً منهم إلى النعمة التى أنعم الله بها عليهم من صحة وموهبة .

إذن : فللعاجز مهمة فى الحياة .

وهذه المهمة يجب ألا يضيع فى الكون بسببها ؛ ولذلك فرض الله سبحانه وتعالى على المؤمن المتحرك فى الحياة . . القادر على أن يتكسب بالعمل ، أن يعمل وينتج بما يتسع لحاجات هذا الضعيف أيضاً . . هذا الضعيف الذى جعله الله سبحانه نموذجاً يلفت المؤمنين إلى نعمة الله على خَلْق الله ، فإذا ما التفت إليه بالعطاء فقد كتب لنفسه البقاء ، بقاء الذكرى فى الحياة ، وبقاء الخلد مع الله تعالى .

يقول الحق سبحانه [1] : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ

(١) وفى المقابل يقول الحق عن الذين يمنعون العون عن الضعفاء : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) ﴾ [الحاقة]

اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾ [الحاقة]

المقصود من هذا القول ليس مجرد تأدية الزكاة، ولكن الله سبحانه وتعالى يقصد أن ينوى العبد العمل بنية أن يفيض من ناتج عمله ما يزيد عن حاجة المؤمن؛ ليعول المؤمنُ ذلك الضعيفَ الذى لا يقدر على الحركة.

وهكذا نرى أن فعل وعمل المؤمن مقرون بنية الزكاة[1] للغير..

وقلنا: إن الحق سبحانه وتعالى بنى الإسلام على أركان، يريد بها استدامة إعلان الولاء له وحده، فهو الواحد الأحد.. ويريد استدامة الإعلان بأنه لا بلاغ عن الله إلا لمحمد رسول الله.

ويريد الله سبحانه أن يتأكد فى نفوس المؤمنين هذا الاستطراق فى المعنى العبادى والعبودى.. فيجمعنا الله سبحانه للصلاة أمامه وله فى خضوع وخشوع.. ويأمرنا أن نتحرك حركة لها ثلاثة أهداف:

* أن نعول أنفسنا.

* أن نعول من نحن مسئولون عنهم.

(١) الزكاة: معناها النماء والزيادة والطهارة، وهى عين الشمول أن تعطى من كل ما وهبه الله لك، أما الزكاة بالمعنى الفقهى، فهى حق معلوم للسائل والمحروم.

* أن نعول الضعفاء العاجزين .

ولأن الحياة تتميز بأن الإنسان يكتسب فيها بعض العادات فى السلوك . . فإن الحياة أيضاً لها شرف العبادة للحق الواحد الأحد سبحانه .

لذلك فالله تعالى يريد من المؤمن أن يفرق بين العادات التى يكتسبها الإنسان ، وبين ما يجب على الإنسان أن يتبعه لينال شرف العبادة .

ولنوضح ذلك :

قد يعيش الإنسان ولا يرى خمراً . . أى : لم تدخل الخمر فى حياته بسبب البيئة الإيمانية التى عاش فيها . . لذلك فهذا الإنسان لا تهفو نفسه إلى الخمر ولا يخطر له على بال أن يجربها . .

وكذلك بالنسبة إلى لحم الخنزير . .

وكذلك بالنسبة إلى السرقة . .

كل هذه المسائل المحرمة لا يكفى فيها أن تكون مجرد عادة . . إنما على المؤمن أن يتذكر دائماً أنه لا يفعل كل ذلك من المحرمات ، لأنه ترف يتعبد به إلى الله سبحانه وتعالى .

لذلك فعلى المؤمن أن يتذكر دائماً انه امتنع عن كل محرم امتثالاً لأمر الله تعالى ، لا لمجرد أنه تعود على ذلك باكتساب معطيات البيئة التى عاش فيها ، ولذلك كانت الأعمال بالنيات .

فالذى يصوم مثلاً لأن الطبيب أمره صحيّاً بالصوم . . هذا النوع من الصيام لا عبادة فيه؛ لأن التعبد لله يقتضى أن يُقبل المؤمن على تنفيذ أمر العبادة ؛ لأن الله تعالى هو الذى أصدر الأمر؛ لأن فعل المأمور امتثالاً لله عز وجل له ثوابه، وفعل المأمور فى ذاته له ثوابه .

وهكذا نعرف أن النية يجب أن تسبق السلوك، وليس أن ننفذ السلوك بسبب أن حاجة من حاجات الحياة قد دفعتنا إليه .

إن الأمر العبادى يجب أن يعايش الإنسان؛ ولهذا فكل عمل فيه مظهر الطاعة وهو بلا نية العبادة فهو عمل لا تحتسب فيه العبادة .

إن الله سبحانه وتعالى أراد بالنية أن تسبق السلوك العبادى، وذلك حتى يتعرف الإنسان على حرارة الإيمان، وحتى لا تنشأ الطاعة فى النفس الإنسانية لمجرد التعود .

ولذلك شاء الله سبحانه أن يجعل أحد أركان الإسلام مختصاً بتحريم ما أحله الله فى بقية العام .

لأن العادة قد جرت بأن يأكل الإنسان ويشرب ويمارس الحقوق والواجبات الأسرية والزوجية فى أى وقت من أوقات الليل والنهار .

ويأتى الحق تبارك وتعالى فيحرم المؤمن من أشياء هى حلال فى كل وقت، ويحدد تحريمها بميقات معين فى ساعات معينة ولمدة محددة . .

التحريم لهذه الأشياء فى رمضان هو لعدد الساعات بين ما قبل الفجر إلى آذان المغرب، ويستمر ذلك لمدة شهر . . هو شهر رمضان[1] . .

لماذا؟!

الإجابة الواضحة هى : ليُديم الرحمن على المؤمن شرف الشعور بحرارة التكليف العبودى .

ذلك أن العادة جرت أن تأكل وأن تشرب وأن تتحرك فى لقاء أهلك فى أى يوم . . لكن يأتى رمضان فينزع الحق جل وعلا المؤمن من هذه العادات التى أحلها له فى غير رمضان .

يحدث ذلك ليستعيد المؤمن شرف الاعتزاز بالعبودية للحق جل وعلا . . الذى أصدر هذا الأمر .

إن الصوم هو تذكير بالخروج مما تعود عليه الإنسان حتى لا تفتن الإنسان حياة العادة وأسبابها . . لهذا كان الصوم شهراً هو التذكير بأن وراء كل الأسباب خالقاً ينصرف الإنسان إلى طاعته بأمانة لا يعرفها إلا العبد والرب .

---

(١) قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة] .

إن الإنسان يصعد بالصوم درجات فى الإيمان، وترتقى نفس المؤمن فترتفع بالامتثال لأمر الله تعالى بأن تُحرَم مما تعودت عليه .

ولا مقياس للمؤمن أمام غيره من المؤمنين إلا مقياس الأمانة مع النفس ؛ لذلك فأصفى ما يكون المؤمن عبودية لله تعالى فى منهجه فى شهر رمضان، حيث يترك المؤمن ما هو حلال له فى بقية الأيام امتثالاً لأمر جديد هو أن تترك هذا الحلال فترة من الوقت مأموراً بذلك من الله تعالى . . ثم يأتى المغرب فتسمع الأذان فيأمرك الله أمراً إجبارياً أن تأكل . .

هكذا يصبح الامتناع – امتثالاً للأمر – عبادة .

وهكذا يصبح تناول الطعام ساعة المغرب عبادة أخرى .

وهكذا نرى أن ممارسة الحرمان عبادة . . وممارسة الإتيان عبادة .

يخرج الإنسان من عادّاته، ويصعد بالحرمان درجة، ويصعد بالإتيان درجة، ويختار المؤمن وضعاً عبادياً نورانياً .

وقد اختار الله هذا الزمان «رمضان» كزمان كان الصفاء فيه مكتملاً للإنسان . . ففى مثل هذا الشهر نزل منهج الله «القرآن» إلى الناس أجمعين .

وإن الإنسان لو نظر إلى الصوم الذى شرعه الله سبحانه وتعالى فى

رمضان شرعاً إلزامياً . . هذا الصوم نفسه يستطيع الإنسان أن يتطوع به إلى الله تعالى فى أيام أخرى غير رمضان .

إن الصيام إلزام فى رمضان .

والصيام نفسه قد يكون تطوعاً [(١)] فى غير رمضان . . هذا إذا اكتشف الإنسان أن فى ذلك خفَّة لبدنه ، وراحة لإشراقه ، واستدامة لتنويره .

وهناك فرق بين أن تلتزم بالطاعة ، وبين أن تُقبل أنت على هذه الطاعة فى غير وقت الإلزام ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يفتح للمؤمن باب الطموح [(٢)] العبادى إليه . . ولكنه يجعل قدراً ضرورياً للجميع .

يحدث ذلك فى كل تشريعات الله . . هناك قدر ضرورى مفروض على الجميع [(٣)] . .

ثم هناك الطموح الإيمانى .

إن الباب دائماً مفتوح للإنسان أن يتسامى وأن يعلو . .

فمثلاً : إذا ما آذاك إنسان . . فالأمر العبادى أن تعاقب من آذاك بمثل

---

(١) وقد يكون قضاءً ، وقد يكون نذراً أو كفارة .

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ ﴾ [الأنفال]

(٣) وهو ما يُعرف فى الفقه بفروض العين ، أى الفروض التى تكون واجبة على كل واحد من أعيان الأمة مثل الصلوات الخمس وصيام شهر رمضان والزكاة المفروضة والحج مرة واحدة فى العمر إذا تحققت الاستطاعة ، أما الفروض الكفائية فليست واجبة على كل أحد ، بل إن فعلها البعض سقطت عن الآخرين .

ما عوقبت به، ذلك قدر مشترك بين الناس جميعاً . .

ولكن المؤمن حين يحاسب نفسه بدقة عليه أن يسأل نفسه بوضوح :

«هل أستطيع أن أعاقب بمثل ما عوقبت به»؟

«هل عندى ميزان دقيق يحقق العقوبة بقدر ما نالتنى»؟

إن الإجابة الحاسمة الواضحة هى :

إن العقاب والرد عليه بالضبط مسألة فيها نظر . . وفيها أيضاً تضارب . . وفيها هوى .

هنا يقول المؤمن لنفسه :

« ما يجب علىّ أن أدخل فى هذه المتاهة . . لماذا لا أكظم غيظى وأنتهى»؟

إن الله يفتح بـ «كظم الغيظ» باب الترقى .

ومعنى كظم الغيظ : أن الغيظ يوجد فى قلب المؤمن على من آذاه . . ولكن المؤمن لا ينفعل انفعالاً نزوعياً ليرد على هذا الغيظ .

وأيضاً يفتح الله سبحانه باب الترقى أكثر .

فلماذا «لا ينزع المؤمن الغيظ من قلبه ويرتقى إلى العفو» ؟

وهكذا يقترب الإيمان بالعبد بأن يذوق المؤمن حلاوة القرب من الله سبحانه وتعالى .

ولنضرب مثلاً . .

وليس فى المثل إلا أن نترجم صفات الله سبحانه التى صارت له أسماء إلى سلوك فى حياتنا . . فمن صفات الحق جل وعلا أنه رحمن ورحيم، وعفو و كريم . . والإنسان على قدر طاقته عليه أن يمتثل لصاحب هذه الصفات . . وبالتنزيه المطلق لله الحق . . نحاول أن نضرب مثلاً فى حياتنا . . ولله المثل الأعلى .

إن الرجل إذا دخل بيته ، ووجد ولداً من أولاده قد آذى أخاه . . فمع من سيكون قلب الأب؟ . .

إن قلب الأب سيكون مع الذى ناله الأذى .

وانفعال الأب سيكون ضد الذى سبَّب الأذى .

وسيحاول الأب إرضاء من أُوذى ، وليمسح عنه عنت الأذى ، وقد يكافئه بأشياء ربما يكون قد طلبها ولم تأت له . . ولو أن الابن الذى ناله الأذى فَطِن إلى هذا العطف والحنان والرحمة وكل هذه «التعويضات» التى انهالت عليه من أبيه لعلم أن أخاه الذى آذاه كان سبباً فى ذلك . . فبدلاً من أن يمتلىء بالغيظ منه والحقد عليه . . بدلاً من ذلك يمكن أن يقول : إن إيذاءه لى سبَّب لى نفعاً ممن هو أعلى منه .

إذن : فهو يستحق أن يكافأ أيضاً بشىء من الشىء الذى نالنى من حب أبى ومن عطفه .

نحن نقرّب هذا المثل تقريباً ليفهمه من يسمع . . وما بالنا بعطاء الرحمن [1] هذا الذى يتنزه عن التشبيه، وهو فوق أن ندرك ونحس، ويملك من العطاء فوق ما نتخيل، وله دائماً وأبداً المثل الأعلى .

لذلك يقول الله سبحانه ترقياً وتصعيداً للمؤمن :

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

ولعل فيما قاله الحسن البصرى ما يحمل فائدة هامة للمؤمن .

سئل الحسن البصرى : كيف يطلب منى الإيمان أن أحسن إلى من أساء إلىّ؟

قال الحسن البصرى لسائله : أولست صنعة الله؟

قال السائل : نعم . .

قال الحسن البصرى : أوليس الذى أساء إليك وآذاك معتدياً على صنعة الله ؟

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) ﴾ [الأعلى]

ويقول الحق : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) ﴾ [الشمس]

ويقول سبحانه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) ﴾ [الليل]

قال السائل: نعم..

قال الحسن البصرى: وحين يعتدى أحد على صنعة صانع، فمن يغار على صنعته؟..

إنه الصانع.. وغَيْرته تكون بإصلاح الصنعة..

إذن: أفلا أحسن لمن جعل الله - سبحانه وتعالى - فى جانبى.

هكذا نرى تصعيد الإيمان.

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى حين يُصعِّد الإيمان فى رمضان بأن يكلف المؤمن أمراً بالحرمان فى وقت معين من أشياء كانت محللة له كل الوقت فى غير رمضان..

إن الله عز وجل حين يخرج بالمؤمن من دائرة العادة إلى شرف العبادة فإنه يؤكد حرارة التكليف الإيمانى.

وما دام العبد فى قمة التصميم.. فإن الله سبحانه اصطفى رمضان ليكون الشهر الذى نزل فيه منهجه إلى الناس أجمعين.

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ...(١٨٥) ﴾

[البقرة]

إذن: فالحيثية التى جاءت أولاً أنه الشهر الذى نزل فيه القرآن. . وما دام قد أنزل فيه القرآن فيجب أن يكون هو أيضاً الوقت الذى يتم فيه تصعيد الإيمان تصعيداً يديم على المؤمن حلاوة العبادة، ويخرج فيه من أسر العادة.

الله سبحانه وتعالى حين يأمرنا أن نشهد ألا إله إلا هو، وأن نشهد أن محمداً رسوله ﷺ وأن نقيم الصلاة، وأن نؤدى الزكاة، وأن نصوم رمضان.

لو نظرنا إلى هذه العبادات لوجدنا فيها أموراً للعبد وأموراً خالصة لله سبحانه وتعالى. . والصوم خالص لله جَلَّ وَعَلاَ [1].

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال ﷺ: «قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به . .» متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) وكذلك مسلم (١١٥١).

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن



أدب الصوم



إذا جاء رمضان . . فإن الحق تبارك وتعالى يجدد الفرصة أمام الإنسان ليعيد تصحيح مسار حياته ، وأن يصحح علاقة الإنسان بالإيمان . وبالوصول إلى الإيمان يكون الأمن والأمان .

حين يقول المؤمن :

- لا إله إلا الله .

وحين يعلن المؤمن هذا الإيمان . . ففى هذا الإعلان الإيمانى راحة للمؤمن ؛ لأنه لن ينحنى لأحد غير الله جلّ وعلا ، ولن يرضخ لمخلوق لأنه عرف عزة عبادة الخالق سبحانه وتعالى .

وهكذا نرى أن الله سبحانه عندما وضع هذا الشرط لإعلان الإيمان به وضعه لأنه فى جوهره عزة للمؤمن وراحة له وتأكيد لكرامته ، بحيث يعرف كل خَلْق الله تعالى أن هذا المؤمن له من العزة والكرامة ما لا يمكن لمخلوق أن يستذله . . فالمؤمن بإعلان «لا إله إلا الله» ضمن لنفسه الاحترام من المخلوقات جميعاً .

وحين يشهد المؤمن بقوله : «وأشهد أن محمداً رسول الله» فإن المؤمن بهذه الشهادة وناطقها يقرر أنه لا منهج يؤمن به فى هذه الحياة إلا ما وصلنا عن محمد رسول الله ﷺ . .

وعلى هذا فليس لأحد من الخلق أن يستزيد شيئاً أو يضيف من عنده إلى النهج الذى جاء به محمد ﷺ من عند الله سبحانه .

والمؤمن عندما يشهد برسالة محمد ﷺ ومنهج الله تعالى الذى جاء به محمد ﷺ فقد أراح المؤمن نفسه من أن يتلقى منهجاً من إنسان آخر يساويه .

إن إعلان الإيمان برسالة محمد ﷺ . . هو إنقاذ للمؤمن ، وبقية البشر متساوون يتلقون المنهج ممن هو أعلى منهم جميعاً . .

وفى ذلك عزة للجميع . . فلا تبعية من إنسان لآخر . . ولا استذلال من إنسان لآخر .

وحين يعلن المسلم ولاءه لله عز وجل بالصلاة كل يوم خمس مرات .

وحين يعلن ولاءه ضمن بقية المؤمنين ومعهم فى صلاة الجمعة . . فإن إحساساً بالمساواة يتحقق بأننا جميعاً متساوون فى العبودية لله تعالى . . فلا يبرز واحد ويفرض جبروته على الناس . . لأن الولاء العبودى قد أعلن للناس جميعاً .

وحين يتحرك الإنسان فى الأرض ليعمل . . فإنه يتحرك لنفسه ولمن يعول . . ويتحرك أيضاً لمن لا يقدر على الحركة . . وذلك بتقدير لزمن قادم يصبح فيه القادر على الحركة الآن غير قادر على السعى للرزق . . فإذا جاء هذا الزمن فإنه سوف يجد مؤمناً يتحرك من أجله .

ولعل الأنظمة المعاصرة فى كل من الشرق أو الغرب تأخذ بهذه الجزئية . . ورغم أن بعضهم كافر بالله إلا أنهم تعلموا من الإسلام أن يأخذوا من القوىٍّ تأميناً له ولمستقبله عندما يصبح ضعيفاً .

إذن : فشهادة لا إله إلا الله . . وشهادة أن منهج الله سبحانه وتعالى الذى جاء به محمد ﷺ هو سيد المناهج جميعاً ؛ لأنه قادم من عند الله تعالى . . وإعلان الولاء لله كل يوم خمس مرات ومشاركة المؤمنين فى تأدية صلاة الجمعة . . والسعى إلى الرزق بما يضمن حاجة الإنسان ومَنْ يعول ومَنْ لا يقدر على الحركة . . كل ذلك من الأعمال تعود على ذات الإنسان .

ويمكن أيضاً أن تحدث هذه الأعمال من عبد لعبد آخر .

فمن الممكن أن يوجد قاض يشهد له الناس بأنه لا قوى سواه . . وأنه لا أمر دون أمره . . وقد يمنحه بعض البشر أوصافاً قد تكون لله وحده عز وجل وتنزه . .

تماماً مثلما فعل قوم فرعون مع فرعون . . وكما فعل فرعون مع قومه . .

حدث ذلك قديماً . . وتكرر الصورة بشكل أو بآخر فى المجتمعات الحديثة . . فالنظرة البسيطة إلى الكرة الأرضية سنجد فوقها أكثر من فرعون .

وقد يأتى عبد ليقف أمام عبد آخر وهو خاضع وذليل . . وربما انحنى هذا العبد لذلك العبد . . وربما سجد بين يديه قرباناً له وإعلاناً للولاء .

هذه الصور موجودة فى المجتمعات التى يقال عنها : إنها متخلفة ، فنحن نرى الفرد يستبد ويظن أن الآخرين مجرد أتباع ، عليهم إعلان الولاء له بألفاظ وسلوك فيه ذلة لآخرين .

وقد نجد إنساناً يقدم بعض ماله هدية لأصحاب الشأن كما يقدم المسلم الزكاة .

وربما يأتى عبد ليحج إلى بيت عبد ، ويسجِّل اسمه فى سجل التشريفات إعلاناً للولاء . . تماماً كما يذهب المسلم إلى بيت ربه . . الكعبة .

لكن . .

هل رأيتم عبداً يتقرب إلى عبد آخر بأن يصوم له؟

لا يوجد فى دنيا البشر هذا اللون من التكريم ولا من القرب .

لماذا لا يوجد هذا اللون من التكريم؟

لأن أشد الناس نفاقاً لا يستطيع أن يقول لعبد آخر : «أنا نويت الصيام لك هذا الشهر» . .

إن المنافق قد يستطيع أن ينافق أو يخضع أو يوهم أو يخدع بألوان من الولاء . . ويحاول وضع إنسان آخر فى مرتبة أعلى . .

قد يقول عبد لآخر : «ليس هناك فى الدنيا إلا أنت عظيم وكريم» . . تماماً كما يقول المسلم : «لا إله إلا الله» . . قد يذهب عبد لبيت عبد آخر تقرباً . . كما يذهب المؤمن إلى بيت الله الحرام .

لكن لا يوجد بين البشر من يقول لآخر : «أنا أتقرب إليك بأن أصوم يوماً أو شهراً ! !»

لماذا؟

لأن الصوم إذا كان تقرباً من عبد إلى عبد آخر . . فهذا نوع من الإيذاء لمن يتقرب إليه العبد . .

كيف؟ !

لأن الإنسان الذى قد يتقرب إليه آخرُ بالكلمة والانحناء قد يقبل هذا اللون من السلوك ؛ لأن نية المتقرب إليه خافية عنه ، ولكن لا أحد يستطيع أن يراقب إنساناً آخر أثناء الصوم ؛ لأن أحداً لا يطيق مراقبة أحد حتى يراه صائماً ؛ لأن الإنسان إذا تقرب إلى عبد آخر بالصيام له . . فإن القهر سيكون من نصيب من قَبِلَ أن يصوم أمامه عبدٌ آخر .

بهذا نجد حكمة الحق جل وعلا قد قررت :

«كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لى وأنا أجزى به»[1].

هكذا نرى أن الصوم يتفرد بين أركان الإسلام بأنه خالص لله سبحانه وتعالى وحده..

ولذلك يقدِّر الله جزاء الإنسان.. وكل العبادات لها جزاء عند الرحمن.. فالحسنة بعشر أمثالها، وقد تصل إلى سبعمائة ضعف..

وكل عمل عباديٍّ محسوب الجزاء عند الله تعالى يكتبه ملاك الحسنات.. لكن الصوم يخرج من دائرة حساب الكاتب.. إن تقدير الجزاء فيه للأعلى الرحمن القهار جلَّ وعلا.. وهو فوق قدرة وطاقة أى أحد.. إن الله سبحانه وحده صاحب تقدير جزاء الصيام.

وهكذا كانت شارة الصوم.

وهكذا كانت هذه المنزلة الرفيعة للصوم، التقرب به خالصاً لله تعالى.. وهو سر لا يمكن أن يحكم به أحد على الآخر، لا يعرف فيه أحد حقيقة صوم الآخر..

إن الصوم يكون بقدر الإيمان وبقدر هيمنة الإيمان على المؤمن؛ ولذلك نجد أن الجزاء عليه يكون من أعدل العادلين الرءوف الرحيم.

«للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه»[2].

(١ ، ٢) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) ومسلم فى صحيحه (١١٥١).

ولهذا نجد أن الإنسان قد يكون من أسرة كلها قوم صائمون، وقد يجرب الإنسان التظاهر بالصوم رغم أنه غير صائم. . فيدخل إلى دورة المياه ليشرب من وراء ظهر الجميع. . ويمسح آثار المياه من على فمه. . ثم تأتى لحظة الإفطار فى المغرب. . ورغماً عن أنف المفطر الذى يدَّعى الصيام يجد نفسه أمام لحظة خزى. . صوت المؤذن يقول: «الله أكبر» ووجوه الصائمين الحقيقيين مليئة بالفرحة، ووجه مُدَّعى الصيام عليه الخزى.

هذا هو معنى «للصائم فرحتان».

فرحة عند الإفطار؛ لأنه نجح فى الالتزام العبودى الذى يصعد به إلى درجة أعلى من الإيمان.

بينما من تظاهر بالصوم وهو مفطر، فقد أدرك الإحساس بالخسارة والهوان.

إن الإنسان يستطيع أن يدرك من صام خالصاً. . ومن تظاهر بالصوم، وهُمَا على مائدة الإفطار. . إن من تظاهر بالصوم يجلس مملوءاً بالاستخزاء أمام نفسه. . والصائم حقاً مملوء بالإيمان.

فمن يدَّعى الصوم يمتلئ بالاستخزاء للنفس، والاستخزاء أمام النفس شر من الاستخزاء أمام الناس أجمعين. . لأن الإنسان يحب أن يكون رأيه فى نفسه جيداً. . لا يشعر بالدُونية، ولا يشعر بفقدان الكرامة أمام

نفسه . .

ولذلك فالذى يرى أن رأى الناس فيه أهم من رأيه فى نفسه فهو يضع نفسه دون نفس من سواه . .

وإن الذى يفطر ويتظاهر بالصوم دون سبب شرعى للإفطار فهذا الإنسان يحكم على نفسه بأنه دون سواه .

ولذلك يكون الصوم سراً بين الحق سبحانه وتعالى وبين الخَلْق . . ولا يكون الصوم مكتملاً إلا إذا تحكم الإنسان فى كل مطلوبات نفسه .

وهكذا يكون الصوم تصعيداً للتكريم فى العبادة . . وقد قلنا فى معنى التصعيد فى العبادة :

إن الإنسان ينفذ حكمة الرحمن فى أن يُحرِّم على نفسه فى وقت محدد ما كان حلالاً بالأمس . . ويصبح الإيمان بذلك تصعيداً لدرجة الرقى فى تنفيذ مشيئة الحق عز وجل .

وهكذا نرى الإيمان رقيّاً بالإنسان . . ويرتفع التصعيد درجة أخرى . . يقول الرسول الكريم ﷺ :

«من لم يَدَعْ قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه» [1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٣)، وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٥٢ ، ٥٠٥) عن أبى هريرة .

وعندما نتأمل هذا الحديث الشريف قد نتساءل :

ولماذا يفترض الإسلام ضرورة الصدق وعدم قول الزور . . وضرورة إيقاف العمل بالزور كشرط لصحة الصوم؟

لماذا يرتبط الصوم لا بالامتناع عن مُتَع الطعام والشراب والزواج فقط . . ولكن بالامتناع عن قول الزور والعمل به؟

وقبل أن نستجلى هذه الحقيقة . . لا بد لنا من استجلاء حقيقة أخرى وهى أن نتعرف على معنى «الزور» .

قد يقول قائل : إن «قول الزور» هو الوقوف أمام القاضى والشهادة بغير الحق . .

لا . . إن هذا معنى محدود للزور . .

ولاستجلاء حقيقة الزور نجد أن شرط الامتناع عن «العمل بالزور» يوضح الحقيقة . .

إن «العمل بالزور»معناه : القيام بأى عمل يجافى الحق .

وهكذا نجد أن «قول الزور» هو كل سلوك فى الحياة لا يوافق حقيقة التكليف الإيمانى .

وإذا جاء رمضان . . فإن الحق تبارك وتعالى يجدد الفرصة أمام الإنسان ليعيد تصحيح مسار حياته، وأن يصحح علاقة الإنسان

بالإيمان . . وإذا كان الصوم علاقة بين العبد والرب . . والرقيب في هذه العلاقة هو العبد رقيباً على ذاته وأفعاله . . مخلصاً في كل فعل مع الله تبارك وتعالى . .

لذلك يكون رمضان هو شهر التصعيد الإيماني . . هو أن يكون الإنسان مخلصاً مع الله عز وجل في نفسه .

وإذا كان الإنسان هكذا في شهر رمضان . . فإن رمضان يكون شهر صفاء . . وإذا تعود الإنسان على صفاء الروح من براثن[1] الزور قولاً وفعلاً . . وتسامت أعماله سلوكاً . . فإن رمضان الذي يستعيد فيه الإنسان صفاء الروح يمكن أن يستطرق[2] في كل الزمن .

إن الإنسان الذي يذوق حلاوة التكليف وحرارة الإيمان وصفاء العقيدة وخُلُوَّ القلب من إرهاق الزور قولاً وفعلاً . . هذا الإنسان يمكنه أن يتعلم كيف يعيش بقية الشهور في صفاء .

فإذا كان الله تبارك وتعالى قد اصطفى رمضان شهراً . . فإن الإنسان يمكنه أن يرى في رمضان مثالاً حياً لبقية الشهور ، فيحياها ، ويسلك فيها دون زور القول وزور العمل .

إن الله تبارك وتعالى يصطفي من الأزمنة زماناً ليدرب الإنسان على حلاوة التكليف .

---

(١) البراثن : مخالب الأسد . واستعيرت للزور وكأن له مخالب تمسك بتلابيبه .
(٢) أي : ينتقل تأثير هذا الصفاء إلى باقي الشهور .

إن الله سبحانه وتعالى يصطفى من الأمكنة . . بعضها ليعلم الإنسان فائدة اللقاء مع مؤمنين مثله تتجدد معهم حرارة الإيمان .

ولكن . .

هل معنى الاصطفاء أنه تجليل وتبجيل لمن اصطفاه على من سواه .

لا . . ليس التجليل والتبجيل مجرّداً . . لكنه التجليل والتبجيل لما فيه من معنى ومعاناة .

فحين يصطفى الله تبارك وتعالى رسلاً . . فلم يصطفهم ليجللهم [(١)] ويحملهم على رقاب الناس، ولكن اصطفاهم ليتحملوا المتاعب فى إيصال الدعوة ومنهج الحق إلى الناس . . وليكون كل منهم أسوة سلوكية ومعنىً حيّاً لكيفية أن يحمل الإنسان منهج الله عز وجل أولاً، ويتعب ويشقى ويكد ؛ لينتشر منهج الله تعالى عقيدة وسلوكاً .

وبعد ذلك نأتى لمن اصطفاه الله عز وجل حصيلة الجهاد فنجد أنه لا يورث مالاً . . بينما غيره من أتباعه يرث منه الأبناء .

هكذا تميز المصطفى محمد ﷺ . .

فالذين من سلالته لا يرثون . . لا مُلْكاً . . ولا مالاً . . فالفقير من أمة محمد له حق الزكاة . . لكن الفقير من سلالة محمد ﷺ لا يأخذ من الزكاة .

---

(١) يجللهم : يجعلهم أعظم من غيرهم .

وهكذا نرى أن اصطفاء الرحمن سبحانه وتعالى لمحمد ﷺ لم يكن ليتميز ولكن ليتحمل تبعةً.

لماذا؟!

إن الله جلّ وعلا اصطفى محمداً ﷺ ؛ ليشيع الاصطفاء سلوكاً فيمن اتبعه . . فيصبح الصفاء لا صفاء واحداً . . ولكن صفاءات متعددة لتعدد الأسباب.

كذلك حين يصطفى الله سبحانه المكان.

هل اصطفى الله جلّ وعلا المكان ليبجّله على جميع الأمكنة؟

لا . .

إن الله تبارك وتعالى اصطفى المكان ليكون قِبْلةً لجميع الأمكنة.

واصطفى الله تبارك وتعالى الزمان كما اصطفى رمضان.

هل اصطفى الله تعالى رمضان ليدلله ، أم اصطفاه ليشيع صفاءه فى كل الأزمنة؟

لقد اصطفى الله تبارك وتعالى رمضان شهراً نزل فيه القرآن الذى يحمل منهج الله سبحانه ؛ ليشيع المنهج فى كل الأزمنة.

ولو أن الناس فهموا الاصطفاء من الحق سبحانه وقارنوه باصطفاء الخَلْق . . لعلموا الفارق الأعلى . .

إن اصطفاء الحق لشيء من أشياء كونه إنما ليشيع اصطفاءه للجميع . .

ولكن اصطفاء الخلق على غير هذا الأساس . . إنه اصطفاء للتميز .

يصطفى الفرد آخر ليميزه .

يصطفى ليُغمض عينيه عن أخطاء من اصطفاه . . فلا يعامله هو وغير المصطفى بقانون واحد .

هذه هى اصطفاءات البشر .

أما اصطفاءات الحق تبارك وتعالى فتختلف .

إن الحق سبحانه يصطفى البشر والزمان والمكان ليستطرق المصطفى إلى بقية ما يماثله . .

وهكذا يكون اصطفاء الحق سبحانه له تبعات . . هذه التبعات إذا قدرها الإنسان . . فإنه يجد أن الحق سبحانه وتعالى يشاء دائماً أن يجعل فى أحبابه الأسوة لخَلْقه .

وما دام الأمر كذلك ، فإن الله سبحانه وتعالى يأخذ من الزمان والمكان والبشر عبرة ، علينا أن نفهمها ، فاصطفاؤه لمحمد ﷺ وجعله خاتم الأنبياء وحامل المنهج القرآنى . . جعل من محمد ﷺ مثلاً لكل مؤمن .

واصطفاء الله تعالى للكعبة بيتاً له جعل الإنسان يتمثل فى ذهنه الكعبة ، وهو يصلّى فى أى مكان آخر .

واصطفاء الله عز وجل لرمضان شهراً يعيد الإنسان فيه صفاءه مع الله . . جعل رمضان فرصة دائمة التجدد للصفاء، عندما يريد الإنسان الصوم فى أى يوم أو شهر آخر من شهور وأيام السنة[1] .

وذلك يقودنا إلى اصطفاء الرسول الكريم ﷺ للعشرة الأيام الأخيرة من رمضان ليختارها أياماً للاعتكاف فى المسجد . . تلك سنة عن رسول الله ﷺ[2] .

ومعنى الاعتكاف : هو الخروج عن الأهل والولد، وعن كل ما اعتاد عليه الإنسان من مكان وبيت ؛ ليعيش الإنسان فى بيت الله وحيداً .

لعل ذلك تمهيداً . .

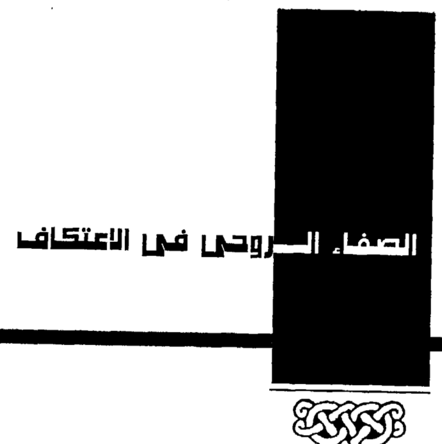
تمهيد لماذا؟ . .

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ... (٦٨) ﴾ [القصص]

(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت : «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٢٤) ومسلم فى صحيحه (١١٧٤).

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن



الصفاء الروحي في الاعتكاف

الاعتكاف فى الأيام العشرة الأخيرة من رمضان هو تصعيد لإيمان الإنسان، وتدريب على الصفاء الكامل مع الله سبحانه وتعالى ، واستعداد لرحلة الركن الأخير من أركان الإسلام . . وهو الحج .

وبعد استكمال المسلم لأركان إسلامه عليه أن يستكمل كل يوم رحلة بقاء الإسلام . .

كيف؟

إن الإسلام معناه : إلقاء زمام الحركة الاختيارية فى الإنسان إلى منهج الله سبحانه وتعالى .

وترك الله تبارك وتعالى للإنسان حرية الاختيار .

وحدد الله سبحانه وتعالى للإنسان قواعد منهج الله فى أوامر من الله هى : «افعل» .

وحدد الله سبحانه للإنسان أسلوب الامتناع عما قال عنه الله : «لا تفعل»، وحركة الحياة بالنسبة للأمر والنهى فى منهج الله تعالى ليست كلها خاضعة لـ «افعل» و «لا تفعل» .

إن سلوك الإنسان الذى يحدده منهج الله بـ «افعل» و« لا تفعل» هو فى الأمور الاختيارية التى ينفعل بها الإنسان .

أما أمور الحياة الضرورية والتى تستقيم بها حركة الحياة . . فلم يتركها

الله سبحانه للإنسان.

ولكن ترك الله عز وجل للإنسان منهجاً.. إذا سار عليه استقامت حياته.. وإذا لم يسر الإنسان على هذا المنهج فإن الضرر يقع على الإنسان لا على حركة الحياة [1].. لأن ضرورات الحياة محكومة بمنهج الله.

أما ما بقي بعد ذلك فهو في مجال اختيار الإنسان أن «يفعل» أو «لا يفعل»، ولن يترتب على الفعل أو عدم الفعل ضرر يتعلق بالحياة؛ لأن الحياة تستقيم بمنهج الله فيها، ولا دخل للبشر في ذلك.

ولكن إقبال الإنسان على تقييد حركته الاختيارية.. لا ينشأ إلا إذا كان الإنسان موصولاً باحترام أمر المكلِّف، وهو الله سبحانه وتعالى.

واحترام أمر المكلِّف لا يكفي فيه أن تؤمن به وبقدرته وبعظمته، ولكن على الإنسان أن يوالي ويديم تذكير نفسه بهذا الإيمان.

فقد يؤمن الإنسان بشيء، ولكنه لا يظل في بؤرة شعور الإنسان دائماً..

فكل إنسان يؤمن بالتأكيد أن نهايته هي الموت..

---

(١) وهذا أمر مقرر منذ أهبط آدم وزوجه إلى الأرض، فقد قال لهم رب العزة سبحانه: ﴿قَالَ اهبطا منها جميعا بعضُكُم لبعضٍ عدوٌّ فإمَّا يأتينَّكُم مني هدًى فمن اتَّبع هُداي فلا يضلُّ ولا يشقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ومن أعرض عن ذكري فإنَّ له معيشةً ضنكًا ونحشُرُه يوم القيامة أعمىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه]

لكن ذلك لا يستقر فى بؤرة شعور الإنسان . .

الإنسان يغفل عن حقيقة نهايته بالموت ، وكأنه خالد فى الحياة .

ويصوِّر الرسول ﷺ ذلك ، فيقول ﷺ :

«لا أرى يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت»

إن الموت يقين ؛ لأنه لا يوجد من لا يعرف أنه سوف يموت . .

لكنه يقين أشبه بالشك . . لأن الإنسان يغفل عن هذا اليقين فى حركته فى الحياة .

إن الإنسان يسلك دائماً فى حياته سلوكاً وكأنه مُخلَّد خالد ؛ ولذلك أبهم الله تبارك وتعالى أجل الإنسان .

كان الله سبحانه رحيماً بالإنسان عندما أخفى عن كل إنسان ميعاد نهايته فى الحياة .

ولهذا لم يجعل الله سبحانه للموت عمراً محدداً . .

ولم يجعل الله تبارك وتعالى للموت سبباً محدداً . .

ولم يجعل الله عز وجل للموت شكلاً محدداً . .

وذلك حتى يكون الإنسان على استعداد دائم أن يلقى الله فى أية لحظة . .

ولكن هل يرتب الإنسان حركة حياته على أساس اليقين بأن الموت قادم لا محالة ؟

لا . .

إن كل إنسان متيقن من أنه سيموت . . لكنه يقين أشبه بالشك .

وحتى يذكرنا الله سبحانه وتعالى بهذه النهاية . . فإنه يعطى الموت فى الحياة صوراً متعددة . .

نجد جنيناً يُجهَضُ فى أسابيع أو شهور . .

ونجد طفلاً يموت فى أعوامه الأولى أو شهوره الأولى .

ونجد فتى يموت فى سنوات فتوته .

ونجد شاباً يافعاً [1] يأخذه الموت فجأة .

ونجد مريضاً على شفا الموت يهبه الله سبحانه وتعالى العافية . .

وكل ذلك له أسباب . . لكن صانع كل الأسباب سبحانه يريد أن يؤكد لنا قضية الموت . . ويبرزها إبرازاً لتظل فى بؤرة الشعور .

إذن : فمطلق اليقين بقضية لا يكفى وحده لتأكيدها . .

إنما على الإنسان أن يتذكر القضية التى يؤمن بها حتى لا تذهب إلى

---

(١) الشاب اليافع : هو الذى قارب سن الاحتلام والبلوغ .

حاشية الشعور وتختفى تحت تراب النسيان .

بل يجب على الإنسان أن يحتفظ بالقضية التى يؤمن بها فى بؤرة شعوره دائماً ليتصرف ويسلك فى الحياة على ضوئها .

وكذلك الإيمان بالله تعالى .

كلٌ منا على يقين بأن الله موجود .

كلٌ منا على يقين بأن لله الكمالات المطلقة .

كلٌ منا يوقن بذلك .

ولكن هل كل إنسان يتصرف ويسلك على ضوء هذا الإيمان .

لا . . إن بعضنا لا يعمل بمقتضى ذلك .

وليس ذلك لأن الإنسان قد غفل فقط عن قدرة الله جل وعلا .

لكن لأن الإنسان قد تشغله أسباب الحياة ، فلا يصير التفكير والإيمان بوجود الله سبحانه فى بؤرة الشعور .

صحيح أن الإنسان لو جلس ليتذكر فإن الذاكرة والتفكير يقودان دائماً إلى الاعتقاد والإيمان بوجود الله .

لكن الله يريد أن يديم على الإنسان قضية الإيمان به استدامة لا يغفل عنها أبداً .

وذلك حتى تصدر كل حركة للإنسان فى الحياة وهى موافقة ومتسقة ومنسجمة لمنهج الله تعالى الذى أنزله . .

فماذا يصنع الله عزَّ وجلَّ من أجل ذلك؟

لا يكفى أن يؤمن الإنسان . . بل لا بد أن يجدد ولاءه الإيمانى دائماً . .

وكيف يجدد الإنسان الولاء الإيمانى؟

وما الأسلوب الذى يتم به تجديد الولاء الإيمانى بالله حتى يتحقق له الفلاح ؟

إن الله تبارك وتعالى ينادى الإنسان كل يوم خمس مرات .

إن صوت المؤذن ينطق كل يوم «الله أكبر» ليذكِّر الإنسان أن الإيمان بالله تعالى هو أوْلى من كل حركة تشغله عن الله فى الوجود .

وحينئذ على الإنسان أن يتذكر أن الله عز وجل أكبر من أى شىء يشغله عن الله . .

لأن الله سبحانه هو واهب حركة الإنسان . .

لأن الله سبحانه هو واهب فكر الإنسان . .

لأن الله سبحانه هو واهب المادة التى يتفاعل معها الإنسان .

فيجب ألا يقول الإنسان : «شغلنى كذا عن الله» .

إن الله تبارك وتعالى يقول لك : الله أكبر من كل ما يشغلك عنه . .

لأن الذى شغلك عنه من عطائه . .

فكيف يشغلك عطاؤه عنه؟

هل أنت تريد فقط أن تكون مع النعمة؟

لا . .

إن الله تبارك وتعالى لا يريدك أن تفتنك النعمة . .

لذلك فإذا دعاك المنعم عليك سبحانه وتعالى . . فعليك أن تترك النعمة وتذهب إليه .

ذلك هو جلال اليقين الإيمانى .

ولهذا شرع الله تبارك وتعالى للإنسان تجديد الولاء الإيمانى بالصلاة .

يدعو الله تبارك وتعالى الإنسان للصلاة كل يوم خمس مرات .

وإذا ما تأمل الإنسان هذا الولاء الإيمانى .

فإن الإنسان يرى أن الله جل وعلا لم يتركه كمجرد تشريع فقط ليفكر فيه الإنسان وينفذه كل يوم خمس مرات .

لكن الله سبحانه أضاف إلى فرض الصلاة شعاراً يتوحد به قلب كل مؤمن ، ويناجى به المؤذن نداء الإيمان فى قلب كل مسلم . .

وتصبح «الله أكبر» شعاراً ينادى الإيمان فى كل قلب . لنتذكر جميعاً أن الله سبحانه وتعالى ينادينا .

ولنفهم جيداً معنى «الله أكبر» . .

هذا معناه أن الله أكبر من كل ما يشغلك عنه .

إن الله سبحانه بـ «الله أكبر» يدعوك إليه .

إن الذى يدعوك هو ربك .

وربك سبحانه لا يدعوك كل يوم خمس مرات لتأخذ إليه شيئاً من نعمته عليك، لترده إليه . .

إنك عندما تصلى وتلبى نداء الله سبحانه لك ودعوته لا تدخل على الله سبحانه بهدية .

إنما يدعوك الله لتأخذ منه الهداية والهدية .

إذن . .

فالله سبحانه وتعالى يحب لصنعته - أنت - أن ترتقى . .

ولذلك يجدد لقاءه بك .

فيأمرك سبحانه وتعالى تكليفاً أن تذهب إليه، وأن تلبى دعوته لك خمس مرات كل يوم .

وهذا هو الفرق بين خالق الدنيا سبحانه . . وبين أىٍّ مخلوق يسيطر على بعض البشر .

هل رأينا أحداً يسيطر على جماعة يأمرهم ويكلفهم أن يذهبوا إليه ليأخذوا من خيرات الود . . ولو مرة واحدة.

إن الإنسان قد تمرُّ حياته كلها ولا يحظى بلقاء الحاكم مرة واحدة.

وإذا ما فكر الإنسان أن يطلب من حاكمه شيئاً . . فإنه يطلب اللقاء ويكثر ويُلحُّ ويطرق الأبواب حتى يلقاه.

وإذا ما سمحت الظروف لإنسان أن يقابل حاكمه . . فما الذى يحدث؟

فى بعض البلاد يحددون لك أسلوب ارتداء الملابس . . وأسلوب الحديث، ومدة اللقاء، ويحذرونك من أن تطيل، وليس للإنسان أن يحدد هو الزمان الذى يريده، أو يحدد المكان الذى يَلقى فيه حاكمه . .

والسبب بطبيعة الحال أن الحاكم بشر من نفس طينة المحكوم . . يعيش امتحاناً خلقه الله سبحانه له، وهو القدرة على أن يوازن أمور البشر المحكومين ومستقبلهم . . لكن الخالق الأعظم . . المستغنى عنا جميعاً . . يقول لكلٍّ منا:

– أنا أدعوك إلى [(١)] رحابى كل يوم خمس مرات، وأنا لا أقتصر على

(١) عبدى لا تأمر بغيرى، فأنا معك، إن تطلبنى وجدتنى وإن فُتَّنى فُتَّك، وفاتك الخير كله، ويقول: «يا عبادى قد خلقتكم من العدم بقدرتي، وأتممت عليكم نعمتى فأعرضتم عنى، وأنا الغنى الكريم، فوعزتى وجلالى لئن أطعتمونى لنصرتكم على أعدائكم واستجبت لدعائكم، وكنت قريباً منكم».

لقـائك فى هذه المرات الخـمس فـقط . . إن أردت أن تلقـانى فى كل لحظة . . فمرحباً . . أنا لا أملُّ منك حتى تملَّ أنت . . وإن أردت أن تديم معى وقتك كله فأنا لا أملُّ حتى تمل أنت . .

ولذلك يجد ، ويحس المقـربون إلى الله تعالى أنهم بفرضية الصلاة أعزهـم الله سبحانه وجعلهم فى رحاب حضرته ليديم عليهم عطاءه .

ولهذا نرى الرجل المقرب إلى الله سبحانه يعبر بإدراك عن هذه المسألة التى تمر على كثير منا دون فكر ودون وعى . .

نجد الرجل المقرب إلى الله سبحانه يعبر عن ذلك بالشعر :

حَسْبُ نَفْسِى عِزاً بأنِّىَ عَبْدُ   يَحْتَفِى بِى بِـلا مَواعِيدَ رَبُّ

هُوَ فى قُـدْسِهِ الأعزِّ ولكنْ   أنَاْ ألْقَــى مَتَى وأينَ أحِـبُّ

أى : فى أى وقت أريد أن أذهب فيه إلى الله سبحانه وتعالى . . فأنا ألقاه .

ومن العـجيب فى أمر الله عـز وجل مع خلقـه أن يتـرك الله الأعلى سبحانه مسألة إنهاء المقابلة للعبد . .

لقد جَرَتْ عادة العظماء أن ينهوا هم المقابلة بأن يقفوا . .

إن وقوف أىٍّ عظيم معناه انتهاء المقابلة . .

ولكن الله عز وجل يظل مع العبد فى صلاته إلى أن ينهى العبد اللقاء.

أىُّ عظمة تجعل الإنسان يفخر بأن خالقه المستغنى عنه يدعوه إلى رحابه كل يومٍ خمس مرات..

وإن أراد العبد المزيد من لقاء الله تعالى، فالدعوة مفتوحة وقائمة، وتحت إمرة العبد لا الخالق.

ولنتأمل مسألة أخرى..

إن الإنسان إذا ما دعا ضيفاً إلى بيته.. فما الذى يحدث؟

إن الداعى يحاول إكرام الضيف.. يتحفه بالإفضال والإكرام بما يناسب منزلته.. هذا يعطى «قهوة»، وهذا يقدم حلوى وشاياً، وذلك يقدم فاكهة.. وكلٌّ يعطى حسب قَدْره وقدرته.. فما بالنا بقدر الله سبحانه وتعالى وقدرته؟

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) ﴾ [النحل]

﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) ﴾

[النحل]

ما بالنا نحن العباد إذا ما دعانا الله سبحانه وتعالى إلى حضرته كل يوم خمس مرات؟

ومـا دامت التحية على قدر الداعى . . فكيف يكون عطاء الله سبحانه وتعالى لنا إذا ذهبنا إليه فى بيته؟

ماذا يعطى الله سبحانه عبدَه؟

إن الله عز وجل يعطى العطاء الخفى ؛ لأن كل مُعْط يعطى على قدر صفاته وذاته . . والعبد يذهب فى الصلاة إلى خالقه وصانعه سبحانه .

فماذا يعطينا الطبيب مثلاً إذا ذهبنا إليه؟

إنه يعطينا الدواء ، وماذا يعطى الصانع لما صنعه عندما نذهب به إليه؟

إنك إن ذهبت إلى صانع التليفزيون ليصون لك جهاز التليفزيون فإنه قد يصل سلكاً مقطوعاً أو يركِّب مسماراً صغيراً كان فقدانه يعطِّل الآلة .

إنك عندما تذهب بشىء مادىّ إلى صانع مادىّ . . فهو يعطيك من جنس ذاته . . إصلاحاً ماديّاً .

أما عندما نذهب فى الصلاة إلى خالقنا وهو غيب فهو يعطينا من ذاتيته وغيبه .

فلا تقل : ماذا أخذت؟ . .

لأن العطاء الربانى غيب .

أعطاك الله سبحانه الطاقة التى لا تراها وتحس بها وأنت تواجه المشاكل .

أعطاك الله سبحانه الشحنة التى ترتفع بها كرامتك أمام كل المخلوقات [1] .

أعطاك الله سبحانه اليقين بأنه موجود تلجأ إليه .

كل ذلك من عطاء الله سبحانه وتعالى .

وأنت تكرر هذه التلبية لدعوة الله سبحانه ، وتديم بها ولاءك للحق تبارك وتعالى . . وأنت تذهب إلى بيته ويعطيك من فيض رحمته .

ويقول لك الله سبحانه فى قرآنه «افعل كذا» وأنت خارج بيتى . «ولا تفعل كذا» . .

هنا تدوم استدامة ولائك لله تعالى . .

هنا تتعدى الصلاة حدودها كنداء من الله تعالى لتصبغ يومك بسلوك الإيمان . .

إذن : فمشروعية بعض الأركان الإسلامية هى الأساس الذى يقوم عليه احترام أوامر الله بـ «افعل» ، ونواهى الله بـ «لا تفعل» .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)﴾ [الإسراء]

وأنت عندما تسمع نداء الله سبحانه وتعالى . . وتذهب إلى الصلاة في المسجد . . فقد تتعطل بعض حركتك فترة من الزمن . . وهنا قد تقول : «إن حركتى تتعطل» .

وهنا نقول :

- إن عليك قياس الأمر بمقياس الذكاء . . فالمهم فى الحصيلة والجدوى . . فقد يطلب منك أحد شيئاً ينقص ما عندك ، ولكن قد يزيد لك ما نقص منك أضعافاً مضاعفة .

الأحمق ينظر إلى ما نقص منه . .

والعاقل ينظر إلى ما يعوض ما نقص [1] .

ما معنى ذلك؟

لنشرح المسألة . .

لنتخيل أن هناك فلاحاً وفى بيته إردبٌ من القمح . . ورأى الفلاح أن أرضه تتطلب نصف الاردب كبذرة يزرعها قمحاً .

الفلاح الأحمق يقول : «هل أُنقص ما فى بيتى نصف إردب وألقيه فى الأرض كبذور ؟! إننى لا أعرف هل ستخرج الأرض قمحاً ، أم تصاب

(١) يقول فضيلة العارف بالله : المنع عين العطاء ، وقد يكون العطاء نقمة .

الأرض بعاصفة وتقلبات تفسد الزرع؟» .

لكن الفلاح العاقل يقول : «لا . . سأُنقص ما فى بيتى نصف إردب من القمح وأزرع به الأرض ليرتد لى بعد رعايتى للأرض وتوفيق الله سبحانه وتعالى عشرة أرادبّ» .

إذن : فالحازم العاقل لا ينظر إلى نقص عاجل . . ولكن ينظر إلى نماء قادم . . والإنسان آلة تتحرك فى الحياة التى خلقها الله تعالى . .

وحين يناجيك ربك سبحانه وتعالى ويناديك لتكون فى حضرته سبحانه . . لك أن تتصورّ كَمَّ عطائه الخفى الذى هو من ذات الله تعالى . .

هذه المسألة تتكرر كل يوم خمس مرات . .

والذى خلق الآلة والحياة سبحانه وتعالى يرسل نداءه خمس مرات . .

ومعنى ذهابك إلى صانعك هو أن تخرج من لقائه وقد أمدّك بطاقة تعوض عليك الزمن المفقود . .

تجعل من كل حركة لك هى حساب على ضوء «افعل» و«لا تفعل»

إذن :

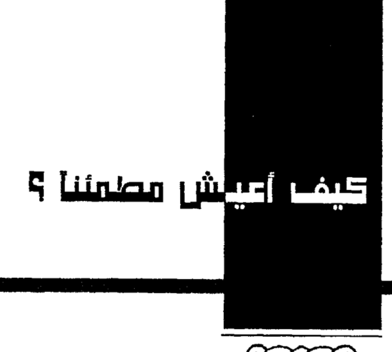
فالولاء الإيماني الذي يريد الله سبحانه وتعالى أن يتتابع فيك ولك . . هو بركة لكل الوقت ، وإن عطلت بعض الوقت ؛ ولذلك يُبيِّن الله سبحانه وتعالى هذه القضية في قمتها حين يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة]

لأن في ذكر الله عزوجل دوام النعم ، فإذا أقبل العبد إلى الصلاة ، فقد تزوَّد بزاد التقوى :

﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦]

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن



كيف أعيش مطمئنا ؟

الخوف والجوع هُمَا آفة المجتمع الذى لا يعمل بشكل جادٍّ فيما وهبه الله سبحانه وتعالى من إمكانيات وموارد طبيعية .

ذلك أن الله سبحانه وتعالى ساوى بين الكفر به وبين من لا يعمل بشكل جادٍّ فى استثمار ما وهبه الله من إمكانات .

إن الإسلام قد تميز بأن الله تعالى قد وضع له أسساً وأركاناً يعتمد عليها . . وتقوم على هذه الأسس والأركان البنية الإسلامية .

والبنية الإسلامية هى كل حركة فى الحياة يتم تخطيطها بالفكر الذى خلقه الله .

ومدى تفاعل هذه الحركة مع المادة التى خلقها الله . . وبالطاقة الجسدية التى خلقها الله سبحانه وتعالى .

فإذا ما رأينا شيئاً ينقض جمال ذلك الكون ، فيجب أن نتهم أنفسنا بأننا قصّرنا فى حق من حقوق الله .

وأول متطلبات الحركة فى الحياة . . أن نحفظ على الناس بقاء النوع الإنسانى ، وبقاء أنفسهم .

وبقاء النفس وبقاء النوع مرتبط أولاً بوجود الأقوات فى الأرض .

والأقوات فى الأرض موجودة كعناصر تتكون منها هذه الأقوات .

والحق سبحانه وتعالى طمأننا على هذا الأمر حين قال :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا [1] ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⑨ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ [2] مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا [3] فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ⑩ ﴾ [فصلت]

إذن : فالأقوات - التى يحتاجها خَلْق الله إلى أن تقوم القيامة - موجودة فى الأرض.

ولو أردنا الدقة فى فهم العبارة القرآنية لوجدنا أن الأقوات مطمورة فى الجبال.

فكأن الجبال التى نراها صخوراً منصوبة فى الأرض هى مفاتيح أقوات البشر.

وشاء الله سبحانه وتعالى أن تكون الجبال صلبة ؛ لأنها لو كانت رخوة وأمطرت السماء لحدث استطراق فى الرخو كله، ولتبدد الخصب فى بقعة على سطح الأرض. هذا الخصب الذى يستحلبه النبات كغذاء له . .

وقد تفسد الأرض لو زادت فيها هذه المواد . . أو على الأقل تجف منها

(١) الأنداد : جمع ند وهو الشبيه والنظير.
(٢) الرواسى : الجبال . تجعل الأرض ترسو فلا تضطرب ولا تتحرك.
(٣) الأقوات : الأرزاق ، وما يقتات به الناس من طعام وشراب.

الخصوبة فى وقت قصير . .

لذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون الجبال صخوراً جامدة . . ثم ينزل منها بقدر .

إن عوامل التعرية التى تحدث بفعل البرودة والحرارة واتجاه الرياح تصنع الشقوق فى أسطح الجبال .

هذه الشقوق إذا ما نزل عليها ماء المطر فإنها تأخذ بعض الأتربة المليئة بالعناصر التى تنزل مع مياه المطر إلى الوديان ، وتمتزج بتربة الأرض ، ويتكون ذلك الخليط الذى نسميه الطمى . . الذى يحمل القدر اللازم من الخصوبة للأرض . . وقد يغطى جزءاً من الأرض الضحلة فتتحول إلى دلتا .

ومثال ذلك :

الوجه البحرى من مصر . . كان قديماً مجرد بحيرات ضحلة . . وتكونت الدلتا من الخصب القادم من خلال النيل . . من خلال مياه الأمطار على الجبال فى قلب إفريقيا . . كان الطمى يترسب ويترسب فيعطينا الخصب كاملاً .

ولذلك نجد أن الدلتا وهى أماكن الخصب . . تكون معكوسة فى شكلها على عكس تكوين الجبال . .

فالجبال رأسية مدببة فى سطحها ومنبسطة فى قاعدتها . . وهى تشبه الدلتا ولكنها رأسية .

فالمياه النازلة على قمم الجبال تغطى الالتقاءات بين الوديان ، وكلما زاد الزمن زادت الرقعة لأنها مثلثة .

تنقص المياه من الجبال وتزيد فى الوديان .

وهكذا نرى أن معظم ما نأخذه من قوت كان مطموراً فى هذه الجبال، ثم زرعناه بالنباتات التى خلقها الله سبحانه فتكاثرت .

إن الله عز وجل يطمئننا أن الأقوات موجودة . .

لكنه سبحانه ربط الحصول عليها بضرورة حركة الإنسان .

ولنضرب مثلاً . . بعنصر واحد من عناصر الحياة . . وهو الماء :

إن الكمية التى خلقها الله عز وجل منذ بداية الخلق . . ستظل هى كمية المياه إلى آخر الخلق بدون نقص .

فإذا ما شرب الإنسان منا مثلاً أثناء حياته عشرين طناً من المياه فإنه يفرز بالتبول والبراز والعرق والمخاط كمية ما . . مساوية لما شربه من الماء . . ولا يظل فى جسم الإنسان سوى تسعين بالمائة من وزنه .

وعندما يقضى الله عز وجل أجل الإنسان ويموت فإن ما فيه من ماء يتسرب إلى الأرض ، ويساعد على تخمر الجثة ، ويتبخر بعد ذلك بفعل

الحرارة . . ويذوب الجسد فى التراب ، وتعود المياه إلى الكون .

إذن : فالقَدْر الموجود فى القوت الأساسى لا ينقص أبداً .

كذلك أقدار الأقوات فى الأرض .

وكذلك كل ما ينشأ فى الكون . . الوردة مثلاً . . تراها نضرة بما فيها من حياة ومياه . . وتراها جميلة بما فيها من لون وعطـر . .

فإذا ما قطفت الوردة . . فإن ما فيها من الماء يتبخر وتذبل وتعود بكل عناصرها إلى الكون .

إذن . .

إن أراد الإنسان أن يستبقى نفسه فى الوقت ، فما عليه إلا أن يُعْمِل عقله وطاقته فى مادة الأرض وعناصرها . .

ولهذا فأنا أقول دائماً :

- إن رأى الإنسان خللاً فى الكون أو الرزق فلنعلم أن قضية من قضايا الإسلام معطلة .

وكسل الإنسان عن العمل من أجل القوت أو عمل الإنسان من أجل القوت مسألة جعلها الله سبحانه قضية أساسية . .

لقد جعلها الله سبحانه وتعالى فى مستوى الإيمان به .

لم يجعل الله سبحانه قضية مساوية للإيمان به . . أو الكفر به سوى

قضية النعم . .

ودليل ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا [1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

وهكذا ساوى الحق تبارك وتعالى بين الكُفْرية والكفر بنعم الله .

فإذا قال واحد : «فلان كفر بالله» فإننا نفهم أن فلاناً هذا أنكر وجود الله . .

أى : أنه ستر وجود الحق الموجود . . هذا معنى الكفر بالله .

ولذلك قلت قديماً :

إن كلمة الكفر كلمة مؤمنة لأنها تفضح عجز الكافرين . . فكلمة الكفر تعنى الستر . . وتعنى أن الكافر يريد أن يستر وجود الله .

ولحظة أن يقول كافر : «كفرت بالله» فهو لا يدرى أنه يقول : «أنا سترت وجود الله» .

وما دام يستر وجود شىء . . فالشىء موجود . .

(١) الرغد : هناء العيش وترفه .

وتعالى الله عما يقول المنكرون له . . رغم أن إنكارهم دليل وجوده .

فكأن الحق موجود . .

لذلك جاءت الكلمة حجة عليهم . .

ونعود إلى القرية التى كانت آمنة مطمئنة ، ثم كفرت بأنعُم الله .

نفهم من ذلك ما يلى :

- إن هذه القرية لم يستخدم أهلها الذكاء والعمل والبحث والإتقان فى النعمة التى منحها الله سبحانه وهى الأرض . . وهذا ستر وتجاهل للنعمة ، أى : كفر بها .

وعندما ندقق بالتحليل لمعنى ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ . .

فإننا نجد أن الكفر كما قلنا هو ستر الوجود . .

ومعنى ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أى : أنها سترت نعمة الله . .

وإذا سألنا :

- كيف تستر قريةٌ نعمةَ الله . .

فإن الإجابة أنها تركت النعمة مطمورة فى الوجود ، ولم تبحث عنها ولم تنقِّب . وهذا كسل . . تركوا الأرض - مثلاً - تحتاج إلى مياه حتى يتم استزراعها .

وهذا ما يقال عنه فى العصر الحديث «مجتمعات متخلفة»، وهناك «ستر» من نوع آخر :

هو «ستر» النعمة عن مجال النفع بها . . صحيح أن أهل القرية عملوا وأخرجوا النعمة .

لكن لم يعم خير النعمة كل المحتاجين لها .

كأن يأخذ وال كل النعمة وخيرها له . .

هذا ستر للنعمة . .

إذن : فـ«ستر النعمة» أى : «الكفر بالنعمة» له أكثر من وجه :

ألا يبحث عنها المجتمع بالعمل . .

أو . . أن يبحث عنها المجتمع وتذهب إلى من يسترها عن الخلق، وهكذا يكون العقاب . .

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ [النحل : ١١٢]

وقد قلنا : إن الجوع يخص الرزق . . والخوف هو أن يوجد فى الحياة ما يفقد الإنسان الإحساس بالأمان . .

وقد قلنا من قبل : إن الله سبحانه وتعالى عندما يحب مجتمعاً فإنه يطعم أهله من الجوع ويؤمنهم من الخوف .

وقد قال الله عز وجل فى الحديث القدسى مايؤمِّن الفرد المؤمن فى المجتمع المؤمن:

«يا ابن آدم لا تخْشَ من ذى سلطان ما دام سلطانى باقياً..

وسلطانى لا ينفد أبداً..

يا ابن آدم..

لا تخش من ضيق الرزق، وخزائنى ملآنة، وخزائنى لا تنفد أبداً.

يا ابن آدم..

خلقتُك للعبادة فلا تلعب، وقسمتُ لك رزقك فلا تتعب..

يا ابن آدم..

إن رضيت بما قسمته لك أرحْتُ قلبك وبدنك، وكنت عندى محموداً..

وإذا أنت لم ترْضَ بما قسمته لك.. فوعزَّتى وجلالى لأسلِّطن عليك الدنيا تركض فيها ركْضَ الوحوش فى البرية، ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمته لك، وكنت عندى مذموماً».

ونقف عند معنى «تتعب»..

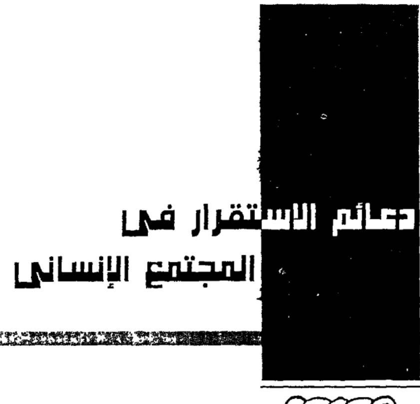
إن معناها تعب القلب.. والهم بالرزق.

ولكن الاتجاه بالمنهج إلى صاحب المنهج يحقق الاطمئنان الذى تبحث عنه الإنسانية ؛ ليقيها من شرور الهم والغم والكروب .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الفتح]

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن



دعائم الاستقرار في المجتمع الإنساني



إن حدود الله سبحانه وتعالى هى ميزان الجمال فى الكون، فإذا أتقن الإنسان تحديد هدفه بإتقان الحياة عملاً وسلوكاً . . فإن الجمال ينتشر فى الأرض؛ لأن ميزان العدل قد أقيم . .

وإذا لم يتعرف الإنسان على الغاية من وجوده . . كان الهلاك والخسران هو النتيجة . .

إن الكفر بنعمة الله هو جبر وقَسْر وسوء معاملة لهذه النعمة . .

وسوء معاملة نعمة الله يأتى على لونين :

اللون الأول : هو أن نهمل العمل على استخراج نعمة الله بالعمل والكد والجد، وأن نهملها فلا نرعى ما فرضه الله عز وجل علينا من ضرورة التفاعل مع الكون لاستخراج ما أنعم الله تعالى به علينا من خيرات مغمورة فى الأرض . .

واللون الثانى : هو أن نستخرج أنعُم الله من الأرض . . ونستأثر بها . . ولا نفيد كل الآخرين بقدر عملهم وبقدر ما يكفل للضعيف منهم حق الحياة، وما يكفل للغنى إحساس الأمان لو داهمتْه ظروف الزمن .

وحين ينتشر فى الوجود أحد هذين اللونين من الفساد . . . فإن الآرق والقلق والجوع والخوف هو العقاب الحياتى الشامل .

ولننظر إلى دقة التصوير القرآنى :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

ولنتأمل معنى هذه الآية . .

إن الله تبارك وتعالى يضرب لنا المثل بقرية تحيا فى اطمئنان يأتيها الرزق من كل اتجاه . . لكنها لم تَرْعَ حدود الله فى هذا الرزق . .

لم تعمل على استخراجه . . ولم توزع عائده بما يرضى عدل الله تعالى . . فجعل الله سبحانه لأيامها مذاق الجوع والخوف . . وكان هذا المذاق شاملاً لحياتها فى كل التفاصيل . . بحيث لا يوجد فيها إنسان لايشمله الجوع والخوف . . وكأن الجوع والخوف لباس يضم كل عناصر حياة أهل هذه القرية .

وإذا سألنا . . كيف يحدث ذلك؟

فإن الإجابة تأتينا بتصوُّر وضع هذه القرية . . إن الجائع فيها سيهدد الذى شبع . .

وهنا يصيب القلق الجائع والشبعان . .

وهكذا ينبت الخوف فى أعماق الجائع وأعماق الشبعان معاً . .

هنا يصبح القلق والخوف هما لباس كل إنسان فى هذه القرية .

وهنا يصبح مذاق الخوف المتبادل بين الجائع والشبعان .

ومذاق القلق والجوع متبادلاً بين الجائع والشبعان . .

الجائع جائع لطعامه . .

والشبعان جائع لأمانه . .

وهنا لا يصبح هناك مَفَرٌّ من الجوع والخوف .

وهكذا يصور لنا الحق سبحانه وتعالى هذا الموقف بدقة حيث لا يشقى واحد فى الكون فقط ، ولكن يشقى الكون كله .

ولا يقتصر التعب على فرد واحد . . ولكن ينتشر التعب فى الكون كله .

والسبب فى ذلك أن حداً من حدود الله - سبحانه وتعالى - قد تعطل .

وحدوث هذا الجوع وذلك الخوف هو ضمان لاستبقاء الجماليات فى الكون . .

ذلك أن المحافظة على جمال الكون كما قلنا سابقاً . . أن تتفق المقدمات مع النتائج .

فإذا طبَّق أهل القرية - أى قرية أو معمورة - حدود الله تعالى كان

الكون منتظماً بالأمان والأمن والاطمئنان . .

وإذا لم تطبق أى قرية - أو معمورة - حدود الله . . كان من الجمال أن تحيا فى هذا الجوع والخوف .

ولقد وضع الله عز وجل حدوده هذه حتى يمنح الإنسان فرصة الترقى .

ففى المسائل التى تركها الله عز وجل لاجتهاد الإنسان . . يستطيع الإنسان أن يطبق حدود الله ليصل إلى انتظام الحياة بأمان واطمئنان .

وفى المسائل التى ليس للإنسان حرية الحركة الاختيارية فيها ، فلسوف تجد أن الكون غاية فى الجمال . .

وكل الفساد ينشأ فى معظم الأحوال من حركة الإنسان الاختيارية .

فعندما يقول الله سبحانه بمنهجه : «افعل» . . و «لا تفعل» إنما كان هذا القول ضرورة لانتظام حركة الحياة .

وعندما ينشأ الخلل بإرادة الإنسان . . فإن ذلك يعنى أن يتلقى نتيجة عمله . .

وهذه النتيجة هى التى تحدد كيفية عمل الإنسان . . فإن كان العمل خيراً ومراعياً لحدود الله . . كانت النتيجة أمناً واطمئناناً وعملاً جاداً منتظماً . .

وإذا كانت حركة الإنسان يشوبها الكسل عن التفاعل مع العمل

لاستخراج كنوز الأرض والرزق، أو كانت حركة العمل لاستخراج كنوز الأرض والرزق مشوبة بسوء توزيع فى هذه الثروات . . كان العقاب فى الحالتين . . عقاب الجوع والخوف . .

لذلك أوصانا رسول الله ﷺ بأن نرعى حق الله سبحانه وتعالى :

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً فليتقنه » . .

لأن إتقان العمل ضرورة للحفاظ على انسجام الجمال فى الكون والوجود . .

إذن : فالقبح فى الوجود يأتى من عدم إتقان العمل . . وتكون النتيجة أن يسخط الإنسان على الوجود .

ويتبادل البشر اتهامات السخط والعجز . . مما يجعل السخط يتفشى فى الوجود .

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يعلّمنا كيف ينتظم العمل للظواهر التى ليس للإنسان دخل فيها . . فيقول فى سورة الرحمن :

﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[1] (٥) وَالنَّجْمُ[2] وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦)

(١) بحسبان : أى أن الشمس والقمر يجريان متعاقبين بحساب مقنن لا يختلف ولا يضطرب .
(٢) النجم : له معنيان ذكرهما العلماء ، أولهما : ما انبسط على وجه الأرض من النبات . وثانيهما : هو النجم الذى فى السماء .

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا[1] الْمِيزَانَ (٩)﴾ [الرحمن]

هكذا نرى التسلسل فى المهمة على ظهر الأرض.

فى البدء كان الله سبحانه الذى علَّم الإنسان - بعد أن خلقه- بالقرآن، وتعلم الإنسان البيان الواضح من الحق تبارك وتعالى..

وتعلم الإنسان من الظواهر التى خلقها الله.. فالشمس تسير بنظام، والقمر بحساب، والنجم يسجد لله والشجر يسجد لله.. والسماء مرفوعة بميزان.

كل ذلك يجرى بنظام عادل، وعلينا أن نقيم نحن البشر ميزان العدل فى الأرض..

لا طغيان فى ميزان حدود الله سبحانه وتعالى.. حتى لا نُصاب بالخسران، وأن يضع الإنسان أمامه الغايات الواضحة، وأن يتبع الوسائل التى حددها الله عز وجل..

ولتبسيط ذلك نضرب مثلاً..

إن من يرغب فى أن يسافر إلى الإسكندرية من القاهرة فهو يتخذ الإسكندرية غاية محددة، ثم يسلك للوصول إليها بالوسائل التى سخّرها

(١) أى: لا تبخسوا الميزان، بل زنوا بالحق والقسط.

الله للإنسان . . الطائرة . القاطرة . السيارة . أو أى وسيلة أخرى سخرها الله . .

مثال آخر . .

عندما يقول الأب لابنه . . «ذاكر لتنجح» . . إن الأب بهذا القول يحدد الهدف وهو النجاح ، ويحدد الوسيلة لتحقيق الهدف وهى المذاكرة .

وهكذا نرى الغاية يمكن أن تتحقق عندما يتقن الإنسان الوسيلة لتحويل الهدف إلى واقع .

هكذا تكون الغاية موجودة قبل الوسيلة . .

وهكذا تكون الوسيلة واضحة فى قدرتها على تحقيق الغاية .

والذى يرهق الناس أنهم لا يعرفون الغايات إلا بعد أن يسيروا بالوسائل .

لكن الذين يحددون الغايات ، ويتعرفون على الوسائل ، ويستفيدون من التجارب هم الذين يصلون إلى روح الجمال فى هذا الكون .

إن علينا أن نعرف أن الغايات حددها الله سبحانه وتعالى ، وهى موجودة قبل الوسائل .

فالحق تبارك وتعالى حدد الغاية من خلق الإنسان ، وهى أن نعبد

الله[1] .

وأرسل لنا المنهج الذى نسير به إلى عبادته، وهو القرآن .

وهنا تصبح غاية الإنسان عبادة الله سبحانه وتعالى . .

والإنسان نفسه غاية كل الموجودات الأخرى التى سخرها الله لخدمة الإنسان .

والكون منتظم لرعاية خليفة الله فى الأرض وهو الإنسان . .

الشمس لا تتمرد على مهمتها ولا القمر . . ولا اختيار لنا فى خدمة ما خلقه الله لخدمتنا . .

أما ما تركه الله لاختيارنا . . فإن المسائل تضطرب إذا لم يُقِمِ الإنسان ميزان العدل .

لذلك أوصانا الله سبحانه وتعالى أن نقيم الوزن بالقسط، ولا نُخسر الميزان .

فإذا كان النجم الذى فى السماء ينفذ مشيئة الله سبحانه وتعالى . . وإذا كان النبات فى الأرض ينفذ مشيئة الله سبحانه وتعالى . .

إذا كان عدل الله قد أقيم فيما سخره الله لخدمة الإنسان . . فلماذا

---

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ومَا خلقْتُ الْجنّ والإنس إلاّ ليعْبُدُون (٥٦)﴾ [الذاريات]

لا نقيم عدل الله فى كل شىءٍ ترك الله تبارك وتعالى لنا حرية الاختيار فيه؟

لأن الطغيان فى الميزان يسبب الإفساد فى الكون.

إن الله عز وجل يحذرنا ألا نقيم منهج الله؛ لأن هذا معناه أن نتلقى ثمرة أعمالنا.. إن لم نقم منهج الله تعالى كان الخسران.. وإذا أقمنا منهج الله كانت النتيجة هى النجاح.

فمثلاً..

نفرض أن الإنسان استدعى إلى بيته رجلاً ليدهن الحائط.. فإذا ما انتهى من عمله.. وقع البياض وتساقطت قطع الطلاء.

أليس ذلك مسبِّباً لسخط الإنسان على من قام بهذا العمل.

ثم لنفترض أنك زرت بلداً أخرى، ووجدت البيوت فيها منسقة، والشوارع نظيفة، وكل شىء جميلاً.. ورغم أنك لا تنتمى إلى تلك البلدة ولا تملك فيها شيئاً فيعجبك ويسعدك أن يكون الكون جميلاً.

ومثال آخر..

قد يكون هناك إنسان يحيا مهموماً داخل قصره الجميل، وهذا القصر حوله حديقة غنَّاء [1]، ومتسعة..

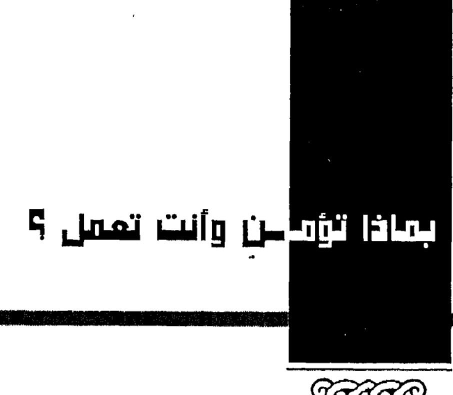
---

(١) غناء: أى غنية بالخضرة والورود والأزهار.

فصاحب القصر لا يتمتع بهذا الجمال رغم أنه ملْكه ؛ لأنه قد يكون مهموماً ، ولكن الذى يتمتع برؤية القصر الجميل هو من يحيا خارج دائرة هذا القصر . . ويراه من بُعْد .

فحتى لو لم يملك الإنسان الأشياء الجميلة فإنه يسعد لمجرد أن يرى هذه الأشياء .

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن



بماذا تؤمن وأنت تعمل ؟



إن الله سبحانه وتعالى يطلب من الإنسان أن يتقن التفاعل مع الحياة، وأن يعمل بروح من النزاهة والإخلاص، فإذا كان الإنسان دائم الذكر لنعم الله تعالى وهو يعمل.. فإنه ينال جزاءين: جزاء العمل، وجزاء الإيمان.

أما الكافر بالله فينال فى الحياة جزاء العمل فقط.. ويكون ألمه عظيماً فى الآخرة.

إن الله سبحانه وتعالى خلق الكون وسخَّر كل ما فيه للإنسان..

أى: لمطلق الإنسان.. مؤمناً به أو كافراً.

لأن الله تعالى قد استدعى الإنسان إلى الوجود.

وما دام الله سبحانه وتعالى هو الذى استدعاه إلى الوجود، فمن رحمته أن قدَّم إليه كل وسائل الاستبقاء فى هذا الوجود.

وذلك كما قلنا كثيراً هو عطاء الربوبية؛ لأن الرب هو المربِّى والسيد والمالك.

ومعنى المربى أن يتعهد من يربيه إلى أن يبلغ الكمال المرجو له.

لذلك كان من رحمة الله سبحانه وتعالى أن استجابت الأرض بكل ما فيها للإنسان، كل الإنسان، لم تفرق الأرض بين مؤمن أو كافر، فالذى يتفاعل مع الأسباب تعطيه الأسباب.

ويتميز المؤمن بأن عقله وقلبه دائماً مع الله تعالى الذى خلق له كل هذه النعم .

والمؤمن بهذا يأخذ حظين :

* حظ استجابة الأسباب له فى دنياه ، وخروج النعمة إليه بعرقه وعمله .

* وحظ إنعام المنعم عليه فى أخراه .

وأما الكافر الذى لا يرى أبعد من الأسباب ، ويغفل أنها من خلق المسبِّب فالأسباب تعطيه ، ويأخذ من خير الدنيا ما شاء له كفاحه ، وما شاء له اجتهاده .

لكن إذا ما جاء فى الآخرة ، فما الذى يحدث؟

إن الله سبحانه صوَّر هذه المسألة بأن قال :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ [1] بِقِيعَةٍ [2] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

(١) السراب : ما يُرى فى نصف النهار عند اشتداد الحر كالماء فى الصحراء يلتصق بالأرض ، وهو من خداع البصر ، وقد سمى السراب سراباً لأنه يسرب سروباً أى : يجرى جرياً ، فيتحرك حركة تخدع الرائى من بعيد ، فيظنه ماء وليس بماء .

(٢) القيعة : أرض واسعة مستوية لا تنبت الشجر .

وعندما نتأمل قول الرحمن سبحانه وتعالى : ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ فلنا أن نعرف أن السراب هو وهمٌ يتخيله السائر فى الصحراء بأنه ماء . . فإذا ذهب إليه التائه فى الصحراء فسوف يكتشف أن هذا السراب ما هو إلا انعكاس لأشعة الشمس . .

وهذا هو معنى ﴿ كسراب بقيعة ﴾ فالكافرون بالله يفاجئهم وجود السراب .

إنه اليأس بعد الأمل .

إنه الإحباط بعد الرجاء .

هو ظمآن وفى صحراء ، ثم رأى ماء . .

كيف يوجد الأمل فى نفسه؟

إن الأمل يتضاعف بقوة .

لكن ليته لم يَرَ ذلك السراب ! لأنه بالحلم سيتخيل أن ظمأه سيشفى عندما يقترب من الماء وعندما يقترب لا يجد الماء .

وليت الأمر مقتصر عند هذا الإحباط وتلك المرارة . . لكن سيقابل الله سبحانه . . سيجد الله كمفاجأة له .

ومعنى فوجىء بوجود الله : أنه ساعة كان يزاول أعماله ويعيش حياته فى الدنيا وكان يعمل لم يكن يتذكر أن الله سبحانه هو خالق كل النعم . .

لذلك فعندما يجد الله سبحانه ويلتقى به ، فإن الله سيوفيه الحساب ؛ لأن الله لم يكن فى باله ساعة عَمِلَ .

ولنا أن نعرف أن الإنسان يأخذ عمله ممن يعمل من أجله .

فإذا لم يعمل عمله من أجل الله تعالى ، فإنه سيفاجأ بوجود الله فى الآخرة ، وهو لم يعمل له .

فكيف يعطيه الله سبحانه وتعالى شيئاً ؟! . . وهكذا يصبح عمله كعمل الكافرين . .

﴿ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ [النور : ٣٩]

ولكن . . هل حرم الله تعالى إنساناً جزاء العمل فى الدنيا؟

لا . . إن الله يعطى النعمة فى الدنيا على قدر العمل ، والدنيا نفسها تكرم النابغ والمبتكر . .

وقد تقام التماثيل لهؤلاء العاملين المجدِّين . . ويحاول العالم دائماً أن يكرم المجتهدين . .

لكن فى الآخرة حساب آخر .

إن من يعمل للدنيا يأخذ أجره منها . . ومن يعمل لله فى الدنيا فإن الله يعطيه الأجر فى الدنيا والأجر فى الآخرة .

فالذين يقولون : إن الكفار الذين يقدمون للإنسانية كذا وكذا . .

ولذلك لا يحرمهم الناس أجرهم فى الدنيا بل يقدرهم العالم الذى عملوا له ، ويعطيهم النياشين ويخلع عليهم الأوسمة .

ولذلك كما يقول الرسول ﷺ :

«يأتى الإنسان وقد عمل العمل فلا يجازى عليه ، فيقول : قد عملت ليقال وقد قيل» .

إن من عمل من أجل أن يقال عنه ، فإنه ينال الأجر فى الدنيا فقط .

إذن : فالذى يعمل للفانى فجزاؤه فانٍ أيضاً ، والذى يعمل للباقى فالجزاء مع الحى الباقى .

لذلك فعندما نُعجَبُ بحضارة الآخرين نقول : أعطتهم الدنيا وحمدهم الناس .

ولكن ألا يليق بالمؤمن بالله أن يترك خير الله سبحانه فى وجوده ليغتصبه منه الكافر بالله؟

غَيْرتنا على الله تقول : لا .

إن المؤمن بالله تعالى عليه أن يكون هو أوْلى بأسرار الله ليستنبطها فى الأرض ، ويعمل ويعمل بحيث لا يجعل الكافر يغلبه على شىء من أسرار الحياة .

إذن : فالكون نوعان :

نوع يفعل لك، وإن لم تطلب منه، حتى وإن كنت غاية فى الكسل .

الشمس مثلاً . . تعطى الأشعة بالحرارة والدفء والنور لكل إنسان، وإن لم يطلب منها الإنسان شيئاً .

والهواء والماء تأخذ منه دون مانع أو عائق . .

لكن الأرض لا تعطى إلا من يعمل فيها، فإذا حرثتها وبذرت ورويت واخترت المحاصيل المناسبة فإن الأرض تعطيك وتتفاعل معك . . أما غير ذلك فلا تعطى .

إذن : فالموجودات المسخَّرة نوعان :

– نوع يفعل لله سبحانه وتعالى وإن لم تطلب منه .

– ونوع يتجاوب معك ومع عملك، وتختلف درجة العطاء على حسب درجة وكمية ونوعية العمل .

وهناك ارتقاء بأن تتفاعل مع من يتفاعل معك وإن لم تطلبه منه، فالشمس تعطى حرارتها وضوءها لكل إنسان . . لكن الإنسان الذى يرغب فى الابتكار والحركة يستطيع أن يتفاعل مع الشمس أكثر، وأن يأخذ منها مثلاً «الطاقة الشمسية» .

والمؤمن يجب أن ينظر إلى أن حركته فى الحياة يجب أن تتواءم مع

جدوى حركته.

سأضرب مثلاً بسيطاً..

هذا المثل هو أننى قد أخرج اليوم من أول النهار فأتحرك فى الحياة..

وحصيلة هذه الحركة نسميها الجدوى أو النتيجة أو الثمرة.

ويجب ألا أحسب كم كسبت قط.. ولكن لا بد من حساب كم استهلكت أيضاً.. فإن كان ما استهلكته فوق ما أنتجته..

فأعلم أن خراباً ينتظرنى.

وإن كان ما اكتسبته قَدْرَ ما أنفقته فأعلم أن الجمود هو حالى، أى: أننى لن أتقدم.

لكن إن كان الذى اكتسبته أكبر مما استهلكته، فهذا ارتقاء ينتظرنى.

هذه قضية فى الأفراد وفى الأسر وفى الأمم وفى العالم. فإن الفرد أو الأسرة أو العالم إذا أنتجوا مثلما استهلكوا فهناك جمود ولا تقدم، وإن كان ينتج أقل مما يستهلك فهناك خراب ينتظره على قدر توزيع الفارق، وإن كان العكس فهنا الارتقاء.

فيجب على المؤمن أن يحاسب نفسه كل يوم.. بالإجابة عن سؤال:

ما جدواك من هذا اليوم؟

ماذا أنفقت فى هذا اليوم؟

وعليه أن يدخل فى معادلة من هذه المعادلات ، وحين يْدخل نفسه فى معادلة من هذه المعادلات فإنه يبنى حياته على بصيرة وعلى أساس .

أما أن يترك حياته بلا نظام . . فلا بد أن نقول له :

لا . . .

. . اعلم أن الحق سبحانه وتعالى . . حين يريد من حركتك فى الوجود استطراقية النفع لك ولسواك . . لا يطلب منك هذا وحدك ، وإنما طلب منك أن تتقن العمل الذى تعمله لغيرك .

فعليك أن تفهم أنه يطلب من غيرك أن يتقن العمل الذى يتقنه لك ، فإن أنت خدعت فى العمل الذى تعمله للناس ، فسيقذف الله فى قلوب الناس أن يخدعوك فى العمل الذى يعملونه لك .

وتستطيع أن تعطى نفسك كشفاً . . فى كل جزئية من جزئيات حياتك .

وتقول : أنا فعلت كذا ، وفعلت كذا بإخلاص أو بنصف إخلاص أو بربع إخلاص .

ولك أن تحسب ذلك بما صرفته . . كم صرفت على المرض والكوارث .

ولو حسبت المسألة بهذا الأسلوب فسوف ترى النتيجة متساوية .

لا يظن أحد أنه قادر على خداع الله سبحانه وتعالى ، فمن يخدع الله يخدع نفسه . . ومن يخدع واحداً يخدعه واحدٌ .

ومن يخدع مجتمعاً . . يخدعه المجتمع أيضاً .

هذه إرادة الحى القيوم . . الذى لا يقبل أن يخدع إنسان .

إذن : فالمسألة أن الذى يستغفل إنما يستغفل نفسه .

وإذا أقام أحد رسماً بيانياً لما أخذه بغير حق . . وقارنه بما صرفه فى ألم . . سيجد أن النتيجة متساوية ، ويزاد فوق ذلك الإثم والذنب .

وكذلك يعطى الله سبحانه وتعالى فى حركة الوجود استطراقات ، هذه الاستطراقات حتى تمنع الغل والحقد والحسد .

إن رأيت إنساناً قد تفوق عليك فى شىء فأنت لا تحقد عليه ؛ لأن تفوقه فى صنعته قد لا يفيده هو ، وإنما يفيد من صنع له .

إذن : فحين ترى إنساناً له موهبة فاعلم أن موهبته ستعود إليك . . لا تحقد عليه .

النجار المتميز يستفيد غيره بعمله . .

الطبيب المتميز يستفيد غيره بعمله .

إن الموهبة لا ينتفع بها صاحبها فقط ، ولكنها له ولغيره من الناس .

لقد ضربت مثلاً من قبل ، وقلت :

إن اليد اليمنى هى المتحركة الفاعلة ، فعندما أمسك بمقص الأظفار وأقص أظفار يدى اليسرى . . أقصها بمنتهى الدقة والأناقة ، وهو ما لا يحدث عندما أمسك المقص بيدى اليسرى لأقص أظفار اليد اليمنى .

إذن : عندما نرى أن إنساناً فيه صفة خير ، فعلينا أن نعرف أن هذا الخير لا يفيده وحده ، ولكن يستفيد غيره أكثر منه .

وهكذا يريد الله عز وجل الاستطراق المتقن فى الكون . .

لهذا فعليك أيها المؤمن إذا قمت بعمل من الأعمال أن تراعى الله فيه ؛ لأن الإتقان مطلوب لجهتين :

الجهة الأولى : هى الله تعالى خالق الكون .

الجهة الثانية : هى الإنسان صاحب العمل .

وصاحب العمل قد يكون غير ممتلك لمهارة التقدير ولا يدرك الخلل . . فإياك أن تأخذه بجهله وتخدعه ؛ لأن الله يقدِّر ويفهم ، ولا يقبل الخداع ، وصاحب العمل قد لا يراك ، لكن الله سبحانه دائماً وأبداً يراك .

إن كان أمرك هكذا . . فإن الله سبحانه وتعالى الذى عملت العمل له، وقدَّرت مراقبته لك، سيراقب لك كل أعمالك فى يد الآخرين .

فإذا خدعت أحداً . . فإن أحداً آخر سيخدعك .

وهكذا تتبدد منك جدوى حياتك .

وانظر إلى حياة الناس لفترة من الزمن فإن وجدت بشراً يرعون الله تعالى فى أعمالهم . . فالاستقامة تستطرق بهم، وستجد من يرعى الله دائماً مكتوباً له القبول فى كل عمل، ومكتوباً له التوفيق فى أشياء لاتخطر لك على بال .

وقد تتعجب أنت وتقول : كيف يعيش الفقير بهذا الدخل؟

قد لا تتصور أنت ذلك . . ولكن لك أن تعرف أن يد الله سبحانه وتعالى معه وبركته معه .

لأن هذا الفقير يراقب الله فى كل عمل يقوم به، ولأنه يُقدِّر قبل أن يعمل لأخيه الإنسان أنه يعمل لربه سبحانه .

إذن : فحركة المؤمن فى الحياة، يجب أن تكون حركة موصولة بالله، وما دامت الحركة موصولة بالله سبحانه؛ فالله سبحانه وتعالى حين يقدِّر الجزاء يقدّره على قَدْر الإتقان، مراعاة لحق الله، والله تبارك وتعالى

يراقبنا جميعاً . . ويرزق كلاً منا بقَدْر مراعاته لذلك .[1]

(١) يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد (٤٦) ﴾ [فصلت]

ويقول عز وجل : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ... (١٠٥) ﴾ [التوبة]

من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن



التوازن العادل في المجتمع الإنساني



إذا عشنا الحياة بروح من العدل مع النفس . . فعلينا أن نحاسب أنفسنا ؛ لأن حساب النفس يعنى أننا نثق أن الله سبحانه يرانا .

وعندما نثق فى ذلك فإن الله تعالى يتقبل منا أعمالنا بروح من العدل الرحيم . .

إن حركة الحياة الاختيارية بالنسبة للإنسان . . حركة محكومة بالمنهج الصالح . . وذلك لصالح الإنسان نفسه . .

لأنه إذا اختلت قاعدة من قواعد المنهج . . فإن الضرر سيلحق بالمجتمع كله . .

وقلنا : إن حركة الوجود تهدف إلى استبقاء النفس واستبقاء النوع . . أو إلى جماليات الحياة .

وجماليات الحياة لون من انسجام الفعل الاختيارى من الإنسان مع الجمال الكونى الأصيل بالنسبة لخالق الأكوان ، وذلك حتى لا يوجد نشاز فى المجتمع .

إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يربِّى فى الإنسان المزاج الجمالى قبل أن يشبع احتياجات الإنسان المادية ؛ ولذلك يعلِّمنا الله تبارك وتعالى أن ننظر إلى الثمار قبل أن نأكلها . .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ

فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً [1] نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ [2] وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ [3] إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾ [الأنعام]

إن الصورة فى هذه الآية الكريمة تبدأ من تأمّل فى الكون . .

الماء الذى ينزل من السماء فينبت فى الأرض، ويروى النخل الذى يمتلىء بالثمار ويروى الأعناب والزيتون والرمان . . إن النظر إلى الثمار يعطى الإنسان إحساساً بجمال الكون، وفى ذلك آية جديدة للذين يؤمنون بالله سبحانه وتعالى .

ويقودنا الله تعالى إلى رؤية ثانية للجمال . .

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ [4] وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) ﴾ [النحل]

هكذا يعلّمنا الله سبحانه الإحساس بالجمال . .

---

(١) الخضر : الزرع والشجر الأخضر .
(٢) القنوان الدانية : قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض .
(٣) ينعه : أنضج .
(٤) حين تريحون : أى وقت رجوعها عشياً من المرعى، فإنها تكون أمده خواصر وأعظمه ضروعاً . وحين تسرحون : أى فى الغداة حين تبعثونها إلى المرعى .

إذن : فالطاقات الجمالية مطلوبة أيضاً للكون ؛ لأن الكون فى نسقه الأعلى جميل . .

لذلك لا يصح لإنسان يتحرك فى الكون أن يصف ذلك الكون بالقبح . .

وعلى الإنسان عندما يعمل أن يتقن هذا العمل إتقاناً يستبقى أصل الجمال فى الكون ، حتى يُرضِى الموجودين عن الوجود كله .

فإذا ما رضى الموجودون عن الوجود كله استقبل كل إنسان حركة حياته بنفس مطمئنة راضية واثقة ؛ لأن غيره من الناس لم يتعبه فيما صنعه له . .

لذلك فهو يستكثر على نفسه أن يتعب غيره فيما يصنعه له .

ولا يمكن لإنسان أن «يُدلِّس» فى صنعته التى يصنعها للغير ، إلا إذا كان قد شرب التدليس من الغير فى صنعة له .

إذن : فالذى يصنع شراً لا يقتصر الأمر عند شره ، ولكنه ينمى ذلك الشر فى الكون . .

ولذلك يضرب الرسول الأعظم ﷺ ذلك المثل للناس فيأمرنا ألا نرى واحداً انحرف عن المنهج أن نتركه ينحرف . .

ذلك أن الانحراف لا يأتى فى القمة أولاً ، وإنما يأتى فى الشىء

البسيط .

فإذا ضربنا على يد الوليد فى الشىء البسيط لا يصل الأمر إلى تفشّى الفساد فى الشىء الكبير .

ومعنى ذلك أنه إذا رأى الرجل فى بيته أو فى ابنه نقيصة بسيطة . . فأرشده . . ثم عاقبته إذا تكرر الفعل . . وأخذ زمامه من أول الأمر ، فإذا الطفل يتعلم تمييز الصواب من الخطأ . .

والرسول ﷺ يضرب لنا المثل فيقول :

«مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا [(١)] على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً . . وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» [(٢)] .

وإذا تأملنا الحديث لوجدنا معنى « استهموا » أى : أجروا قرعة من يجلس فى قاع السفينة؟ ومن يجلس على سطحها؟ . .

فإذا أراد الجالسون فى قاع السفينة بعض الماء صعدوا إلى أعلى

(١) استهموا : اقترعوا .
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٩٣) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٦٨) والترمذى فى سننا (٢١٧٣) وقال : حسن صحيح .

السفينة، وأدلوا الدلو فى الماء . .

فقال أحدهم : لو ثقبنا السفينة لأخذنا الماء دون تعب . .

لكن لو ترك ركاب السفينة حدوث ذلك . . لكان الهلاك . .

ولو ضربوا على أيدى أصحاب هذه الفكرة . . لَنجَوْا جميعاً .

ويشاء الله سبحانه وتعالى أن يعلِّمنا الكثير من الأشياء والأخلاق والسلوك .

إن الله سبحانه وتعالى يعلمنا أن نقف بمنهج الله صفاً واحداً ضد بداية أية جريمة وأول بادرة لأول جريمة ؛ لأن منهج الله تعالى يمنع تفشِّى الجريمة . .

يعلِّمنا الله سبحانه وتعالى أن كل إنسان منا له ولاية ومسئولية عن عدد من البشر .

وكل ولاية لها دائرة . .

الزوج مسئول عن الزوجة والأبناء . .

والرئيس مسئول عن المرءوسين . .

لذلك يطالبنا الله عز وجل أن تكون عيون كل والٍ فى منتهى اليقظة على من يتولى مسئوليتهم . .

وذلك حتى يرى أى بداية لأى لون من الانحراف . . ويواجهه بحزم،

وبذلك يبعده عن حياة الأفراد.

ويضرب الله عز وجل لنا مثلاً بسيطاً فى الولاية والرعاية.. عندما بيَّن لنا العلاقة بين سيدنا زكريا والسيدة مريم عليهما السلام:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا[1] فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ[2] وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا[3] وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)﴾ [آل عمران]

(١) محرراً: خالصاً مفرغاً للعبادة ولخدمة بيت المقدس.
(٢) المحراب: صدر البيت أو المسجد، وأكرم موضع فيه، وهو عند العامة المكان الذى يقيمه الناس لمقام الإمام فى المسجد.
(٣) الحصور: الذى يحصر نفسه عن إتيان الشهوات.

نتأمل تلك القصة فنعرف أن مريم عليها السلام موهوبة من أمها للتقوى . .

وأن الله سبحانه تقبَّل مريم عليها السلام وأنبتها نباتاً حسناً ، وجعل من يكفلها فى الحياة هو سيدنا زكريا عليه السلام . .

و«يكفلها» أى : يتولى رعايتها فيأتى لها بكل ما تحتاج من أمور الحياة . .

وعندما دخل سيدنا زكريا على السيدة مريم وجد عندها بعض الرزق . . هنا سألها «أنى لك هذا؟» أى . . من أين لك هذا؟

وكأن معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد منا أن نتحرى وأن نتعرف . . وذلك فى أنه ضرب لنا المثل بسؤال سيدنا زكريا للسيدة مريم عليهما السلام . .

ولم يكتف سيدنا زكريا عليه السلام بالإجابة عندما قالت له السيدة مريم عليها السلام : ﴿ . . .هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [آل عمران]

بل سأل زكريا عليه السلام ربه أن يعطيه ابناً . .

وهكذا كانت إجابة الله تعالى .

إن رزق مريم من عند الله تعالى تماماً كما كان رزق سيدنا زكريا عليه

السلام بطفل .

إن تأمل هذه القصة يوحى بأن يسأل الإنسان دائماً أفراد الدائرة التى يكفلها . .

فالرجل لا بد أن يسأل زوجته لو امتلكت شيئاً لم يشتره هو ، وكذلك يسأل أولاده . . والأم لا بد أن تسأل بناتها عن الأشياء التى يمتلكنها ، وتبدو فوق طاقتهن .

إن مبدأ « أنَّى لك هذا ؟ » هو تشريع قرآنى ليطبقه كل فرد فى دائرة ولايته . . حتى لا يبدأ الانحراف صغيراً ثم يكبر ، وحتى لا يأتى طوفان الانحراف .

إن إهمال مبدأ « أنَّى لك هذا ؟ » . . هو السبب فى الفساد الذى أصاب الكون . . ولو علم كل إنسان أن هناك من سيسأله :

- أنَّى لك هذا ؟ . .

لاستقام ميزان العمل . . وكان لا بد من ذلك حتى تستقيم حركة الحياة فى الكون . . وذلك لينشأ الخير للجميع .

لأن من يهمل مبدأ «أنى لك هذا؟» . . فإن الإهمال يبدأ بصمت وتجاهل ، ثم يستشرى الانحراف لندرك بعد ذلك مصاعب مجمَّعة وكوارث تتوالى ، ولا تَقوى النفس البشرية على تحمُّلها . .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يضع للناس ميزاناً . . وهذا الميزان يتلخص فى :

* «كل المسلم على المسلم حرام . . دمه وماله وعِرْضه »[1] .

و . .

* «المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرَّج الله عنه كربة من كرب القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[2] .

و . .

* «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[3] .

إن النبى ﷺ يريد أن ينشر المساواة عندما يؤكد هذا الاستطراق الوصائى . . بأحاديثه .

إن النبى ﷺ يكاد أن يربط كل سكان الدنيا فى حديث واحد عندما قال :

« ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[4] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٧٧ ، ٣٦٠) عن أبى هريرة .
(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠) .
(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) وكذا مسلم (٤٥) .
(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٢٤) من حديث عائشة .

وعندما نتأمل هذا الحديث . . نكاد نرى الدنيا قد أصبحت عائلة إنسانية واحدة . .

فمن رعاية جار لجار آخر . .

ومن حرص «جار» على ألا يعتدى على حق جار . .

نجد أن الدائرة الإنسانية تلتحم . .

نجد الكون كله يرتبط فى محبة وانضباط ومسئولية ومساواة وارتباط كل فرد مؤمن بالآخر ارتباط من يحب لجاره ما يحبه لنفسه .

وفى هذا استطراق نفعى يحقق سعادة الكون .

وما دام الكون سعيداً . . فأنت تعمل على إسعاد الآخرين . . والآخرون يعملون لسعادتك .

وينبهنا الله سبحانه وتعالى وهو الحق بمنافذ الضعف الإيمانى . .

إنه يأتى من أحد منفذين . .

من صاحب العمر - أى الزوج أو الزوجة - أو من الأبناء . .

إن الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ

فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم (١٤) ﴾
[التغابن]

لأن الرجل يريد لزوجته السعادة والراحة، فيخطئ لو تسامح.

وكذلك الزوجة . .

وكذلك الأبناء .

إن تطبيق مبدأ « أنَّى لك هذا ؟ » فى الصغائر يحمى الكل من الكبائر .

ولهذا فإن الرحمن جل وعلا . . يعلِّمنا أنه ترَفَّع عن أن يتخيل أحد من البشر . . أن له ما للبشر من زوجة وولد . .

وبيَّن ذلك بنص قرآنى صريح :

﴿ وأنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ[1] رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا (٣) ﴾ [الجن]

ولأن الله سبحانه وتعالى يعلم أن البشر يعانون أحياناً من زلل[2] الأبناء والزوجات . . فيطمئنهم أنه أعلى من أن يختار لنفسه ما أعطاه للبشر . . الزوجة والولد . .

ويضع الله سبحانه وتعالى لنا المنهج الصحيح للرابط الأسرى . . أن نطعم الأهل حلالاً . .

(١) جدُّ ربنا : عظمته وغناه عن العالمين.
(٢) الزلل : الخطأ.

وألا نظلم الناس من أجلهم . .

وأن ينشىء كل مسلم أهل بيته على منهج الله تعالى .

وعندما يعرف العبد أن له رباً . . وعندما يؤكد العبد أنه يراعى حق الخالق سبحانه فى مخلوقاته فإن الله تعالى يحسن له ولذريته . .

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا[1] (٩) ﴾ [النساء]

إن الله تبارك وتعالى يعلِّم الإنسان أن يرعاه فى أمور الناس حتى يرعى الله أولاده وآل بيته وأبناءه . . ويطمئنه عليهم ، ولنتأمل أكثر دقة الدرس الإيمانى . . وذلك فى سورة الكهف :

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ

(١) القول السديد : الصائب .

جئْت شيْئًا إمْرًا [1] (٧١) قال ألَمْ أقُلْ إنَّكَ لن تَسْتَطيعَ مَعيَ صَبْرًا (٧٢) قال لا تؤاخذْني بما نسيتُ ولا ترْهقْني منْ أمْري عُسْرًا (٧٣) فانطَلَقَا حتَّىٰ إذا لقيا غُلامًا فقتَلَهُ قال أقَتَلْتَ نفْسًا زَكيَّةً [2] بغيْر نفْسٍ لَّقَدْ جئْتَ شيْئًا نُكْرًا (٧٤) قال ألَمْ أقُل لَّكَ إنَّكَ لن تَسْتَطيعَ مَعيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إن سألْتُكَ عَن شيْءٍ بعْدَهَا فلا تُصَاحبْني قدْ بَلَغْتَ من لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فانطلقا حتَّىٰ إذا أتَيَا أهْلَ قرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا [3] أهْلَهَا فأَبَوْا أن يُضَيِّفُوهُمَا فوجدَا فيهَا جدارًا يُريدُ أن يَنقضَّ [4] فأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْه أجْرًا (٧٧) قالَ هَذَا فرَاقُ بَيْني وبَيْنك سأُنَبِّئُكَ بتأْويل مَا لَمْ تَسْتَطع عَّلَيْه صَبْرًا (٧٨) أمَّا السَّفينَةُ فكَانَتْ لمَسَاكينَ يعْمَلُونَ في الْبَحْر فأَرَدتُّ أَنْ أعيبها وكانَ وراءَهُم مَّلكٌ يأْخُذُ كُلَّ سفينَةٍ غصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلامُ فكَانَ أبواهُ مُؤْمنيْن فخشينَا أن يُرْهقَهُمَا طُغْيَانًا وكُفْرًا (٨٠) فأَرَدْنَا أن يُبْدلَهُمَا ربُّهُمَا خيْرًا مّنْهُ زكَاةً وأَقْرب رُحْمًا (٨١) وأَمَّا الْجدَارُ فكَانَ لغُلامَيْن

(١) الشيء الإمر: الشديد النكارة.

(٢) نفساً زكية: طاهرة لم ترتكب ذنباً بعد.

(٣) استطعما أهلها: طلبا من أهلها أن يطعموهما.

(٤) ينقض: ينهدم. فأقامه: أي رممه حتى لا ينهار.

يتيمين في الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)﴾ [الكهف]

إن المؤمن المتأمل لهذه القصة يرى اللقاء بين سيدنا موسى عليه السلام وبين العبد الصالح . .

وكان العبد الصالح تقيّاً وأهل حكمة . وتنبأ بأن فتوة موسى وشبابه ستجعل الأسئلة دائماً على فمه عن أى فعل . .

وعندما خرق العبد الصالح السفينة . . استنكر موسى هذا الفعل رغم أن العبد الصالح نبَّه عليه ألا يسأل إلا عندما يتلقى الإجابة . . وسأل موسى . . لكن العبد الصالح أعاد التحذير .

وعندما التقى العبد الصالح بغلام فى المدينة قتله العبد الصالح ، واستنكر موسى ذلك . . فأعاد العبد الصالح التحذير . . وعندما وصل موسى عليه السلام برفقة العبد الصالح إلى قرية سأل العبد الصالح أهلها طعاماً له ولسيدنا موسى ، لكن أهل القرية كانوا من الخسة مما جعلهم لا يمدون بساط الطعام للغرباء . . لأن من يطلب طعاماً غير الذى يطلب مالاً . .

إن الذى يطلب الطعام لا يجد معه ما يشترى به الطعام ، ورغم ذلك

أكمل العبد الصالح بناء جدار كان يجب أن يتم بناؤه . . فقال موسى عليه السلام للعبد الصالح :

- إنك تستطيع أن تأخذ عليه أجراً . .

وهنا يقف العبد الصالح ليؤكد لموسى عليه السلام أنه لا يطيق الصبر . . ويشرح كل الأسباب . . السفينة كانت لفقراء ضعفاء وخلفهم ملك يغتصب السفن ، فالخرق يعفى السفينة من المصادرة والاغتصاب .

الغلام الذى قُتِل . . كان مستقبله هو الوبال والكارثة على أبويه الصالحين .

والجدار كان لطفلين لا عائل لهما فى هذه القرية اللئيمة . . التى رفضت أن تطعم العبد الصالح وموسى عليهما السلام . . وكان لا بد من بناء الجدار ؛ لأنه يخفى كنزاً تركه لهما الأب الصالح حتى يبلغ اليتيمان أشُدّهما ، ويستطيعا استخراج الكنز .

القصة إذن أن موسى عليه السلام كان لا يعرف الأسباب . .

لا يعرف إلا أن العبد الصالح خرق سفينة .

لا يعرف إلا أن العبد الصالح قتل غلاماً .

لا يعرف إلا أن العبد الصالح أكرم أهل القرية ببناء الجدار ، رغم أن الحقيقة أن بناء الجدار كان لحماية ضعفاء .

هكذا بنى العبد الصالح الجدار بأسلوب يضمن وقوعه عند بلوغ اليتيمين سِنَّ الرشد فيجدا الكنز.

هكذا نرى أن والد اليتيمين كان عبداً صالحاً أيضاً، ترك لأبنائه كنزاً من العمل الصالح.

إن فى هذا عبرة لنا نحن الذين نرى أن بعضنا يدَّخر للأبناء المال.. ويظلمهم به.

هذا الصنف من الناس لا يعرف أن الكون مضبوط بدقة، يديره من لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم.. الحى القيوم سبحانه وتعالى.

فمَنْ يخادع .. لا يخدع إلا نفسه.

خاتمة

هذا كتاب أتى مع الفجر من وحى الفيض الرحمانى ، إلهامات مشرقة بعلامات نهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، للوصول إلى الفجر ، فجر حركة تحرير الفكر من الدخيل عليه ، ومن الوافد إليه ، بروح محبة ، وبنفس صافية ، وبعقل مفكر فى الله جل علاه ، جاد بها إمام الدعاة الشيخ/ محمد متولى الشعراوى ، فى ساعة إشراق ، وفى وقت الأشواق مع الله .

فكان كتاباً للأجيال التى عاشت ليلاً تطلب فجراً ، لترى نور الإسلام من مصادره الصافية بالحقائق الجلية التى تجذب العقل الشارد إلى الوعى بأوامر الله وفيوضاته ، وتنادى القلب الغائب ليكون حاضراً مع الله ، حباً ومنهجاً وسلوكاً .

هذه المعانى سمعها الشباب ، فصاغوها أنشودة يرتلها الزمن وتنفحها الحياة لتحيا بها وعليها ولها ، فهى للروح زاد ، وللعقل فكر ، وللنفس سكينة وأمن .

فالأرواح به تهيم

والعقل به يفكر

والنفوس إليه تسكن

وذلك بأدب الداعية الذى ساقه إمام الدعاة ببيان الأدب ، وبلاغة الصفاء فى مقومات ، بها قوام الدعوة وعظمة الداعية :

أولها : سماحة العرض .   وثانيها : لين القول .

وثالثها: حكمة الموعظة.   ورابعها: الجـدل الحسن.

هذه المقومات هي ظلال قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (١٢٥) ﴾ [النحل]

فلو أحسن الداعى فى جمال العرض مع الحكمة ما وجدنا منحرف. أو محترفاً أو تائهاً فى بيداء الجهل، فلا إلى الطريق سلك، ولا إلى المقصود ملك.

وما أحوجنا فى هذا الوقت من داعية ينغم الحقائق، بفن القول، وحكمة الحال، وموعظة الحسنى، حتى نصل إلى الإحسان فى مسيرنا نحوه، ومصيرنا إليه، ولا يكون ذلك إلا إذا اتصف الداعى.

بالصدق مع الله والنفس والإنسان.

وبالأمانة مع الله والنفس والإنسان.

والذكاء فى العرض مع مقتضى الحال.

والبلاغ المؤدب الذى يحمل المعانى فى حالها، والبيان فى كماله، والبديع فى فنونه، فتلتقى الحقيقة مع الفن للوصول بالمريد نحو المراد.

جزى الله صاحب الإشارات الذى وضع لكل قيمة علامات، إمام الدعاة الذى امتن الله على هذه الأمة به؛ ليكون هادياً للشباب، ودليلاً للرجال، نحو دين الكمال والتمام والرضى، بارك الله لنا فيه وأمده بمدد الفيض، وبإلهام العابدين.

الموضوع	الصفحة

أخبار اليوم التجارية
هليوبوليس

هذا الكتاب

في رحلة العطاء المتواصل لفضيلة الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوي إشراقات و إلهامات متجددة تنير الطريق للسالكين ، وتهدي الحائرين ، وتعلم البشرية ما خفى عليها من أمور الدين .

إن ، مكتبة الشعراوي الإسلامية ، هي إحدي هذه العطاءات التي تولت ، مؤسسة أخبار اليوم ، إصدارها ، وصدر في إطارها العديد من الكتب ، يتناول كل كتاب منها موضوعاً مستقلاً بذاته ، يعالج قضية من القضايا الدينية التي تهم كل مسلم و مسلمة ، وتفتح آفاقاً جديدة في تفكيره .

وهذا الكتاب فيض أفاضه رحمن الدنيا و الآخرة على إمام الدعاة ، وأجراه على لسانه في لمحات إيمانية و نفحات قلبية ، ينير طريق الهدايا للحائرين المتحيرين .

وسيصدر هذا الفيض المبارك في أجزاء أربعة ضمن ، مكتبة الشعراوي الإسلامية ، .

مطابع أخبار اليوم التجارية - هليوبوليس